
فى
التنوير الإسلامى
« ٢٦ »
الحملة الفرنسية فى الميزان
تأليف :
د . محمد عمارة

في التنوير الإسلامي ٢٦

الحملة الفرنسية في الميزان

تأليف :

د. محمد عمارة



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم الكتاب: الحملة الفرنسية فى الميزان

اسم المؤلف: د / محمد عمارة

تاريخ النشر: ديسمبر ١٩٩٨م . (طبعة أولى)

رقم الإيداع: ١٦٧٤٣ / ١٩٩٨م .

الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0887 - 9

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع .

المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة .

مدينة السادس من أكتوبر .

ت: ٣٣٠٢٨٧ / ٠١١ (١٠ خطوط)

فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦ .

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة

ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥ .

فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥ . ص.ب: ٩٦ الفجالة

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - الجيزة

ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤ .

فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦ . ص.ب: ٢٠ إمبابة .

في «الوطنيـة» - كـمـا فى «الدين» - هناك أمـور «مـعلومـة بالضرورة» ، لا تختلف فيها ولا عليها بصائر ذوى التمييز من العقلاء . . ذلك لأن الوطنية الصحيحة ، مثلها كمثل التدين الصحيح فطرة فطر الله الناس عليها . . وعن الفطرة الدينية حدثنا القرآن الكريم عندما قال : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾[1] . . وعن فطرة الوطنية علمنا رسول الله - ﷺ - حبه لوطنه مكة - حتى وهى على الشرك ، الذى حاصر دعوته ، واضطهد المؤمنين بها ، بل واستفز هؤلاء المؤمنين ليخرجهم من وطنهم - فقال - ﷺ - يناجى هذا الوطن - مكة - في لحظة الفراق ، يوم الهجرة : «**والله إنى أعلم أنك أحب البلاد إلى الله ، وأحب البلاد إلى نفسى ، ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت**» ! . .

ومع مطلع عصرنا الحديث ، ظهرت طلائع الأناشيد الوطنية ، التى نظمها علماء الإسلام ، فتحدثت عن فطرة الوطنية . . ومنها ما نظمه الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣م) عندما قال :

---

(١) الروم : ٣٠ .

من أصلِ الفطرة للفَطِن   بعـد المولى حبُّ الوطن
هبـةٌ مَنَّ الوهابُ بهـا   فـالحمـدُ لوهّاب المِنَن[1]

ومن فطرة الوطنية - التي اتفق عليها العقلاء، من كل الشعوب وجميع الحضارات ومختلف الديانات، على مر الأزمان، الفرح بالانتصارات الوطنية - والاحتفال بها، وإحياء ذكرياتها - والحزن بالهزائم والانتكاسات، والاعتبار بها . . . والمسلمون لا يزالون يحتفلون حتى اليوم بانتصارات الدولة الإسلامية الأولى يوم بدر (٢هـ ٦٢٤م) وبفتح مكة (٨ هـ ٦٣٠م) وبانتصارات القادسية (١٥هـ ٦٣٦م) واليرموك (١٥هـ ٦٣٦م) والإسكندرية (٢٠ هـ ٦٤١م) وحطين (٥٨٣هـ ١١٨٧م) وعين جالوت (٦٥٨هـ ١٢٦٠م) والقسطنطينية (٨٥٧هـ ١٤٥٣م) والعاشر من رمضان ١٣٩٣هـ السادس من أكتوبر ١٩٧٣م . .

فالاحتفالات الوطنية إنما تكون بالانتصارات، لا بالهزائم والانتكاسات . .

وهذه الفطرة الوطنية السوية ليست خصيصة إسلامية ولا شرقية . . وإنما هي فطرة إنسانية . . فالفرنسيون لا يزالون يحتفلون بتراجع مسلمي الأندلس في موقعة «بواتييه» - بلاط الشهداء - (١١٤هـ ٧٣٢م) . . والنمساويون لا يزالون يحتفلون بتراجع الجيش العثماني عن أسوار «فينا» (١٠٩٤ هـ ١٦٨٣م) . . بل لقد أقام الغرب الدورة الأولمبية - في «برشلونة» سنة ١٩٩٢م احتفالا بانتصار الأسبان على المسلمين في الأندلس، وإسقاط «غرناطة» (٨٩٧هـ ١٤٩٢م) قبل خمسمائة عام !! . .

---

(١) رفاعة الطهطاوي (الأعمال الكاملة) جـ ٥ ص ٢٧٨ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .

وكذلك الحال عند الصهاينة ، الذين بلغوا فى الشذوذ عن الفطرة السوية حتى ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ (1) نراهم يبكون على هدم المعبد - ولا يحتفلون به - وإنما يحتفلون بانتصارهم على العرب ، وإقامة دولتهم سنة ١٩٤٨ م . .

والهنود ، الذين تتلمذوا - بقيادة قديسهم غاندى (١٨٩٦ - ١٩٤٨م)- على الثورة المصرية التى قادها سعد زغلول (١٢٧٣ - ١٣٤٦هـ ١٨٥٧ - ١٩٢٧م) فى سنة ١٩١٩م . . لم يشذوا - رغم تقديسهم للبقر - عن هذه الفطرة الوطنية السوية ، فاحتفلوا سنة ١٩٩٧م بالعيد الخمسين للاستقلال عن بريطانيا . . ولم يحتفلوا بذكرى الاحتلال الإنجليزى لبلادهم ، رغم أنهم قد أخذوا عن هذا الاستعمار : اللغة . . والقومية . . والعلمانية . . والكثير من الأداب والفنون والعلوم . . بل لقد بلغوا - إبان احتفالاتهم بذكرى الاستقلال - إلى الحد الذى اشترطوا فيه على ملكة إنجلترا - وهى تحضر احتفالاتهم - أن تعتذر - رسميا - لشعب مدينة «أمرستار» المقدسة لديهم ، عن المذبحة التى ارتكبها الجيش الإنجليزى الاستعمارى فى هذه المدينة سنة ١٩١٩م ، إذا أرادت الملكة أن تزور «أمرستار» ! . .

تلك هى الفطرة التى فطر الله عليها الناس - الأسوياء - فى «الوطنية» . . كما فطرهم ، سبحانه ، عليها فى «الدين» . .

---

(1) البقرة : ٩٣ .

قمة الشذوذ

لذلك .. يصبح الشذوذ عن هذه الفطرة الإنسانية فى الوطنية شيئا غريبا .. بل وشذوذا غير مسبوق فى تاريخ الوطنية بإطلاق .. وانقلابا على السلوك الإنسانى الذى تعارفت عليه وأجمعت القبائل والأمم والشعوب .. فلا أحد يحتفل بذكرى اقتحام اللص لمنزله، أو اغتصاب أرضه، أو انتهاك عرضه، أو سلب سيادته على وطنه .. اللهم إلا هذا النفر من شواذ المثقفين الفرانكفونيين - بمصر - الذين ساروا فى الركاب الفرنسى، وقرروا الاحتفال - على امتداد عامين - بمائتى عام على حملة نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) على مصر (١٢١٣هـ ١٧٩٨م) ! . محاولين ستر هذا العوار والشذوذ بادعاء أنهم إنما يحتفلون بالعلاقات الثقافية مع فرنسا، وليس بالغزوة الاستعمارية .. يحتفلون بالمطبعة والمجمع العلمى وليس بالمدفع والبارود ! .. **ولو صدقوا فى هذا الادعاء، لكان احتفالهم مبادرة ذاتية منهم، بدلا من أن يأتى استجابة ذليلة لأحفاد الغازى نابليون .. ولو كان لادعائهم ظل من الحقيقة لجعلوا هذا الاحتفال فى ذكرى الجلاء الفرنسى عن مصر سنة ١٨٠١م - كما صنع ويصنع كل البشر - حتى الذين أشربوا فى قلوبهم العجل، والذين يقدسون البقر! أو لجعلوا الاحتفال فى ذكرى فك العالم الفرنسى «شمبليون» (١٧٩٠ - ١٨٣٢م) الرموز اللغوية فى «حجر رشيد» (١٢٤٢هـ ١٨٢٧م) .. أو مثل هذه المناسبات الثقافية «الفرنسية - المصرية»، بدلا من أن يجعلوا شهر يوليو سنة ١٩٩٨م - وهو شهر بداية الاحتلال الفرنسى لمصر سنة ١٧٩٨م -**

بداية هذه الاحتفالات، التى أرادها الفرنسيون - ومعهم شواذ الفرانكفونيين المصريين - لمدة عامين، التى هى مدة الاحتلال !!..

بل إن شذوذ هذه الاحتفالات - والقائمين بها - عن «المعلوم من الوطنية بالضرورة» ليتزايد إذا نحن علمنا أن هذا الاستعمار الفرنسى - الذى يحتفلون به - ليس استعمارا عاديا - كسواه من ألوان البلاء الاستعمارى، الذى ابتليت به كثير من الشعوب، وإنما هو قمة البلاء الاستعمارى، لأن الاستعمار الفرنسى على وجه الخصوص لم يكتف - عادة - بما اكتفى به كثير من المستعمرين، من: احتلال الأرض، ونهب الثروة، وسلب الحرية، وإذلال الكرامة.. وإنما تجاوز المستعمرون الفرنسيون - عادة - هذه المقاصد الاستعمارية إلى حيث ذهبوا لمحو الهوية الدينية واللغوية للشعوب التى ابتليت باستعمارهم، فتعدى استعمارهم نطاق «الإمبريالية» إلى نطاق القتل والإبادة لتميز الشعوب المستعمرة عن فرنسا.. لقد أرادوه قهراً ومحواً «للذات»، وليس فقط اغتصابا «للإمكانات»!..

بل لقد يدهش الذين لا يقلّبون صفحات التاريخ القديم إذا هم علموا أن الاستعمار الفرنسى قد مثل بالنسبة لمصر ووطن العروبة وعالم السلام أقدم موجات الاستعمار الأوربى، وليس فقط أقسى وأخطر وأسوأ هذه الموجات!..

● فحملات الغزوات الصليبية - التى استمرت على بلادنا العربية قرنين من الزمان (٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٩١م) والتى مثلت - بما أقامت فى بلادنا من استعمار استيطانى، وممالك وإمارات وقلاع وحصون، وتهديد لمقدسات الإسلام فى الحرمين المكى والنبوى، فضلا عن اغتصاب الأقصى وتحويله إلى كنيسة، واحتلال القدس الشريف.. إلخ - هذه الحملات الصليبية بدأت مشروعا استعماريا فرنسيا!..

فمن جنوبى فرنسا - بمدينة «كلير مونت» بدأت هذه الغزوة، عندما دعا البابا الذهبى «إربان الثانى» (١٠٨٨ - ١٠٩٩م) أمراء الإقطاع وفرسانهم، وخطب فيهم - داعيا إلى أن يتخذوا الإسلام والشرق عدوا يوجهون إليهما طاقاتهم وغرائزهم العدوانية، بدلا من توجيهها فى صراعاتهم الداخلية !! - فقال لهم :

«أنتم فرسان أقوياء، ولكنكم تتناطحون وتتنابذون فيما بينكم - ولكن، تعالوا وحاربوا الكفار - (أى المسلمين) !! - .. يامن تنابذتم اتحدوا .. يامن كنتم لصوصا كونوا الآن جنودا .. تقدموا إلى بيت المقدس .. انتزعوا تلك الأرض الطاهرة، واحفظوها لأنفسكم، فهى تدر سمنا وعسلا ! . إنكم إذا انتصرتم على عدوكم ورثتم ممالك الشرق[1]» !

فمن فرنسا بدأ أول مشروع أوربى لتوحيد حتى اللصوص لمواجهة الإسلام والمسلمين، ووراثة ممالك الشرق، التى «تدر سمنا وعسلا» ! ..

وعندما اقتحمت هذه الغزوة - التى انطلقت من فرنسا - مدينة القدس (٤٩٢هـ ١٠٩٩م) أبادت من بها من المسلمين، حتى الذين احتموا ببيوت الله، سفكوا دماءهم، حتى لقد سبحت خيول الصليبيين بدماء الأبرياء فى مسجد عمر بن الخطاب - مسجد قبة الصخرة - .. وكتب هؤلاء البرابرة - أجداد نابليون بونابرت - إلى البابا الذهبى - فى فرنسا - يفاخرون بما صنعوا، فقالوا : «**إذا أرت أن تعرف مايجرى لأعدائنا، فثق أنه - فى جامع عمر - كانت خيولنا تغوص إلى ركبها فى بحر دماء الشرقيين**[2]» ..

---

(١) د . محمد عمارة (معارك العرب ضد الغزاة) ص ٣٥ طبعة دمشق سنة ١٩٨٨م .
(٢) المرجع السابق . ص ٣٩ .

وبكلمات شاهد عيان – فى مصدر نصرانى – **«فلقد استوعب المسجد من الدم المحتقن فيه كفى بحر متموّج[1]»**!

● ومن بين الحملات الصليبية – التى انطلقت من فرنسا – بقيادة أمرائها وملوكها – تميزت حملات وحروب الملك – القديس – لويس التاسع (١٢١٤ – ١٢٧٠م) .. وكان لويس التاسع هو مكتشف المنهاج الذى سار عليه نابليون بحملته على مصر! .. المنهاج الذى يرى أن مصر هى بوابة الشرق، وطريق القدس الشريف .. **فاحتلال مصر هو الشرط لاستعادة القدس - التى سبق أن حررها من الاستعمار الصليبى صلاح الدين الأيوبى (٥٣٢ – ٥٨٩هـ ١١٣٧ – ١١٩٣م)** – ولقد عبر المؤرخ «ابن واصل» (٦٠٤ – ٦٩٧هـ ١٢٠٨ – ١٢٩٨م) فى كتابه (مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب) عن هذا المنهاج – الذى سلكه لويس التاسع .. ومن بعده نابليون – فقال عن القديس لويس: «إنه كان متدينا بدين النصرانية، مرتبطا به .. **فحدثته نفسه أن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج.. وعلم أن ذلك لا يتم له إلا بملك الديار المصرية[2]»**!

وعندما نقرأ الإنذار الذى وجهه القديس لويس التاسع إلى الملك الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب (٦٠٣ – ٦٤٧هـ ١٢٠٦ – ١٢٤٩م) نجد الحقائق الكاشفة عن دور فرنسا فى ذلك الصراع .. فهو يتحدث عن نفسه باعتباره ممثل النصرانية الغربية – **«أمين الأمة العيسوية»** – .. ويكشف عن دور فرنسا فى الصراع ضد الإسلام، لا فى الشرق فحسب، وإنما فى الأندلس أيضا – فيقول:

---

(١) مكسيموس مونروند (تاريخ الحروب المقدسة فى المشرق المدعوة حرب الصليب) جـ١ ص ٢٨٢ طبعة القدس سنة ١٨٦٥م.

(٢) (معارك العرب ضد الغزاة) ص ٩٦، ٩٧.

.. وإن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا. ونحن نسوقهم سوق البقر! ونقتل منهم الرجال، ونرمّل النساء، ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار»[1] !!.. فحرب فرنسا ضد الإسلام كانت قائمة وشاملة في المشرق والمغرب على السواء ..

● وإذا كانت حملة القديس لويس التاسع قد انكسرت على أرض «المنصورة» - بدلتا نيل مصر .. بل ووقع «أمين الأمة العيسوية» أسيرا (٦٤٨هـ ١٢٥٠م) .. فإن عهد هذا الملك وسنوات حملته الصليبية قد شهدت ريادة الاستعمارى الفرنسى لبواكير الأحلاف غير المقدسة بين الاستعمار الغربي وبين الوثنية - حتى الوثنية - إذا كانت المواجهة مع الإسلام والمسلمين .. فعلى درب «يهود خيبر» - الذين تحالفوا مع مشركى مكة - عبدة الأوثان - ضد التوحيد الإسلامى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا (٥١) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا (٥٢)﴾[2] .. على درب «يهود خيبر» سارت فرنسا، ممثلة في «البابا إينوسنت الرابع» (١٢٤٣ - ١٢٥٤م) وفي القديس لويس التاسع، عندما سعى البابا إلى التحالف مع المغول الوثنيين ضد الإسلام والمسلمين، فأرسل (٦٤٣هـ ١٢٤٥م) إلى بلاط خاقان المغول - في «قراقورم» - بعثة رأسها أحد رجالاته - «جون ده بيانى كابرينى» - لإقناع المغول - الذين

---

(١) المرجع السابق: ص ٩٩.

(٢) النساء: ٥١، ٥٢.

كانوا يفكرون بغزو أوربا - لإقناعهم بالتحالف مع الصليبيين، وتوجيه غزوتهم المدمرة إلى عالم الإسلام! . .

وتواصلت المفاوضات بين الطرفين سنة ١٢٥٢م - أى حتى بعد هزيمة حملة لويس التاسع على مصر - حتى تم التحالف اللامبدئى . . فزحف المغول على بغداد فدمروها (٦٥٦هـ ١٢٥٨م) ثم دمروا بلاد المشرق، وهددوا الوجود الإسلامى فى جملته، لولا أن قيض الله لمصر هزيمتهم فى «عين جالوت» (٦٥٨هـ ١٢٦٠م) . . .

بل إن هزيمة لويس التاسع فى مصر لم تنه أحلامه الصليبية الاستعمارية؛ فذهب على رأس حملة صليبية أخرى لغزو تونس، حيث هزم وقضى نحبه هناك (٦٦٩هـ ١٢٧٠م) . .

● وبعد نجاح البرتغاليين - عقب سقوط غرناطة - فى الالتفاف حول العالم الإسلامى - أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر - . . وعندما بدأت أوربا تفكر فى ضرب قلب العالم الإسلامى - مصر والوطن العربى - لم تجد أوربا - يومئذ - أفضل من فرنسا لتقود وتبدأ هذا الإنجاز الاستعمارى . .

فالفيلسوف الألمانى «ليبنتز» (١٦٤٦ - ١٧١٦م) عندما كتب كتابه الذى وصف فيه واقع مصر الاقتصادى والعسكرى والاجتماعى والدينى - سنة ١٦٧٢م - ليغرى أوربا باستعمار مصر - وسمى هذا الكتاب (المخطوط السرى لغزو مصر) - لم يجد هذا «الفيلسوف» مُنَفِّذاً لمشروعه الاستعمارى أفضل من ملك فرنسا لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥م) . . فقدمه إليه - رغم ما كان يومئذ بين ألمانيا وفرنسا من

تناقضات ومحاربات - لأن الجميع - فى مواجهة الإسلام والمسلمين - هم على قلب رجل واحد .. كل النصرانية الغربية .. وجميع المذاهب النصرانية .. وسائر القوميات الأوربية .. بل وحتى التحالف مع الوثنية المغولية البربرية .. كل ذلك وارد و «مشروع» فى مواجهة الإسلام والمسلمين ..

ولقد كان هذا (المخطوط السرى لغزو مصر) دليل نابليون بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) وحملته الفرنسية على مصر .. بل وما كان كتاب (وصف مصر) - الذى وضعه علماء هذه الحملة الفرنسية - إلا الصورة المتطورة لهذا المخطوط .. فالمقصود والمراد هو وصف الواقع لاحتلاله ونهب ثرواته، ودراسة عقل الأمة وفكريتها وعاداتها وتقاليدها وأعرافها ومواريثها، لتدبير كيفية التعامل معها، ليتأيد ويتأبد هذا الاحتلال!..

وإذا كانت مهمة هذه الصفحات ليست حكاية وقائع الاحتلال العسكرى الفرنسى لأرض مصر .. والذى قام الفرنسيون - لتحقيقه - بقتل ثلث مليون مصرى - فى وقت كان تعداد مصر لا يتجاوز ٢,٤٦٠,٠٠٠ نسمة .. - أى أنهم قد ضربوا رقما قياسيا فى «الإبادة» عندما قتلوا ١/٧ الشعب المصرى، فى مدة لم تتجاوز السنوات الثلاث !! -

وهدموا وأحرقوا الكثير من القرى - التى ثارت جميعها ضد جيش الاحتلال - والعديد من أحياء المدن، التى تنافست فى المقاومة للغزاة .. حتى لقد كان للعميان - فى الأزهر الشريف - ثورتهم الخاصة، والتى قدموا فيها وفى أعقابها العديد من الشهداء ! .. الأمر الذى جعل بونابرت - وهو الذى دوخ أوربا - يهرب من مصر بليل .. وجعل خليفته الجنرال «كليبر» (١٧٥٣ - ١٨٠٠م) يلقى مصرعه بمصر .. أما ثالثهم - الذى خلف «كليبر» - وهو الجنرال «مينو» (١٧٥٠ - ١٨١٠م) - فلقد اضطر للاحتماء بالإسلام، فأعلن إسلامه وسمى نفسه «عبد الله» وتزوج مصرية من مدينة «رشيد» ! .. لتضطر هذه الحملة - التى جاءت لتحقيق أحلام الإسكندر الأكبر (٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م) والقديس لويس التاسع .. ولويس الرابع عشر .. وبابوات فرنسا .. «والأمة العيسوية» الغربية .. تضطر إلى الرحيل عن مصر (١٢١٦هـ ١٨٠١م) ..

ليست مهمة هذه الصفحات حكاية الوقائع التى اشتهرت فى كتب التاريخ . . بقدر ما تطمح إلى لفت الأنظار إلى الجوانب الفكرية والحضارية التى قصدت إليها هذه الحملة، ليعرف من لا يعرف أن جوانب الفكر فى هذه الحملة الاستعمارية كانت فى خدمة المدفع والبارود . . بل ربما كانت **أخطر من المدفع والبارود!..**

● إننا نشكو اليوم - على النطاق العربى الإسلامى - من اختراق الغرب لأمننا الوطنى والقومى والحضارى من خلال ثغرات الأقليات - الدينية والقومية - ومحاولاته تحويل هذه الأقليات إلى أوراق ضغط على الحكومات الوطنية، وإلى عقبات أمام مشاريع التغيير والنهوض - القومية منها والإسلامية - بل والوطنية أحيانا - . . **ولقد كانت لنابليون وحملته الفرنسية الريادة فى هذا الاختراق!..**

لقد أعلن بونابرت - وهو فى طريقه إلى غزو مصر - عن نيته تجنيد عشرين ألفا من أبناء الأقليات فى الشرق، للاستعانة بهم كقبضة ضاربة، وقفاز مخملى، ومواطئ أقدام لحملته الاستعمارية وحلمه الإمبراطورى.

وبعد احتلاله لمصر، بدأ التنفيذ لهذا المخطط الخطير والكريه . . فأغرى نفرا من «أراذل النصارى» - من الأقباط والطوائف الأخرى . . وخاصة أتباع المذاهب النصرانية الغربية - بالخروج على إجماع الأمة - المسلمين منها والنصارى - فكوّنوا «فيلقا قبطيا» التحق بجيش الحملة الفرنسية، وحارب الشعب المصرى مع قوات الاحتلال . . وقاد هذا الفليق «المعلم يعقوب حنا» (١١٥٨ - ١٢١٦ هـ ١٧٤٥ - ١٨٠١م) - وهو الذى سماه الجبرتى (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ ١٧٥٤ - ١٨٢٢م) «يعقوب اللعين»!..

و «فيلقا» ثانيا من النصارى الأروام، قاده «برطلمين يني الرومى» - الذى اشتهر لدى العامة بـ «فرط الرمان» ! . .

وكما يقول الجبرتى - مؤرخ العصر وحجته - فإن فيلق المعلم يعقوب قد ضم من شباب القبط بالصعيد نحو الألفين . . وشارك هذا الفيلق مع الجيش الفرنسى - الذى قاده «ديزيه» - فى «فتح صعيد مصر» ! . . وتدرج المعلم يعقوب فى مراتب الجيش الفرنسى، فمنحه «كليبر» رتبة «كولونيل»، وأنعم عليه «مينو» برتبة «جنرال» فى مارس سنة ١٨٠١م[1] . .

فكان هذا أول اختراق استعمارى غربى لصفوف الوحدة الوطنية المصرية!.. ولقد تم على يد حملة نابليون...

● وفى «ديوان المشورة» - الذى أقامه «بونابرت» - جعل لهذه الأقليات غير المسلمة - والتى لا تتعدى نسبتها العددية لمجموع السكان ٥ ٪ - نصف عضوية الديوان العام والخاص - خمسة من علماء الأزهر، واثنان من التجار المسلمين، وسبعة من الأقليات النصرانية - وعندما يضاف إليهم الأعضاء الفرنسيون يصبح المسلمون أقلية ضئيلة العدد والتأثير فى هذا الديوان[2] ! . . فالهدف لم يكن تدريب الشعب على حكم نفسه - كما يزيف المتغربون - وإنما كان إذلال الأمة بتحكم الأقلية الخائنة فى مصائرها ! . .

● أما الجهاز المالى والإدارى - أى الحكومة والسلطة التنفيذية

---

(١) (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) جـ ٥ ص ١٤٨، ١٤٩، تحقيق : حسن محمد جوهر، عمر الدسوقى، السيد إبراهيم سالم . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥م .

(٢) المصدر السابق . جـ ٥ ص ٤

- فلقد اختص بها الفرنسيون هذه الأقليات التى أصبحت سياطا يلهب بها الفرنسيون ظهور المصريين !

● ولم يقف الأمر عند حدود توظيف هذا الاختراق لخدمة المقاصد السياسية والمالية والإدارية . . وإنما تعداه إلى توظيف هذه الشريحة - من «أراذل القبط» - كما سماهم الجبرتى - لا ستفزاز عقيدة الأمة ، والعدوان على إسلامها ! . .

فعلى النقيض من محاولات خديعة المسلمين بادعاء «إسلام بونابرت» ، ومجيء جيشه لنصرة سلطان المسلمين ضد المماليك! . . رأينا الجنرال «كليبر» - كمايقول الجبرتي - يعهد إلى المعلم يعقوب حنا «بأن يفعل بالمسلمين مايشاء»[1]! .. حتى «تطاولت النصارى - من القبط ونصارى الشوام - على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانا؟! وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين[2]» !! .. فشق الوحدة الوطنية بلغت به الحملة الفرنسية حد استفزاز وتهديد حتى عقيدة الإسلام في مصر. وإعلان «انقضاء ملة المسلمين، وأيام الموحدين! ...

● بل إن هذا الاختراق الذى أحدثته الحملة الفرنسية للوحدة الوطنية المصرية ، لم تنقض آثاره بهزيمة هذه الحملة . وجلاء جيشها عن مصر (١٢١٦هـ ١٨٠١م) وتسريح «الفيلق القبطى» . . ذلك أن هذه الشريحة - من «أراذل القبط» - كانت بمثابة طليعة تيار «التغريب» والاستلاب الحضارى، والانفصال - الذى سموه «الاستقلال» - عن ماضى مصر وتراثها وهويتها الإسلامية، وعن محيطها العربى

---

(١) المصدر السابق : جـ ٥ ص ١٣٤ .

(٢) المصدر السابق : جـ ٥ ص ١٣٦ .

والإسلامي ... «الاستقلال» عن الذات الحضارية، والإلحاق والالتحاق والتبعية للنموذج الغربي، الذي جاء به الفرنسيون الغزاة..

وإذا كان المعلم يعقوب اللعين، قد غادر مصر - هو وأعوانه - في ركاب الحملة الفرنسية المنهزمة، وعلى ذات السفن التي أقلت جنود هذه الحملة .. فإن خيبة هذه الحملة البونابرتية، لم تجعل آمال المعلم يعقوب تخيب في أوربا ! .. فتوجه «بوصيته» - التي كتبها في مرض موته، على ظهر السفينة التي أقلته من مصر - توجه إلى إنجلترا، لتحل محل فرنسا، ولتسعى للسيطرة على مصر . وإلحاقها بأوربا - بدلا من الإمبراطورية العثمانية - فكتب في وصيته عن هذا المشروع يقول :

«توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار . ولذا فيهمّ الإنجليز، قبل أن تقع الواقعة، أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه، **فيحققوا مصالحهم السياسية.**

وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر - كما استحال ذلك من قبل على فرنسا - **فيكفي أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا**، صاحبة التفوق في البحار المحيطة بها .. إن بريطانيا لها من سيادتها البحرية ما يجعلها **تستأثر بتجارة مصر الخارجية**، ويضمن لها بالتالي أن يكون لها **ما تريد من نفوذ فيها**.. **إن مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا** .. ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر ،، **وهذا الاستقلال لن يكون نتيجة وعي الأمة، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبري تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء !.. وللدفاع عن هذا الاستقلال.. فإن**

المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم، يتراوح عددها بين ١٢,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ جندى ، يكفون تماما لصد الترك عن الصحراء ، ولسحق المماليك داخل مصر . . إن أى حكومة فى العالم أفضل من الاستبداد التركى[1]»!

فالوصية «اليعقوبية» هى باستقلال مصر عن ذاتها الحضارية، وماضيها وحاضرها الإسلامى، ومحيطها القومى والحضارى، وإخضاعها لنفوذ إنجلترا، لتكون موالية بريطانيا، التى تستأثر بتجارتها الخارجية.. هذا «الاستقلال» الذى تفرضه القوات الأجنبية على المصريين «المسالمين الجهلاء»!.. كما قال المعلم يعقوب اللعين!..

هكذا تخلّقت - على يد الحملة الفرنسية - بواكير الخيانة والاختراق للأمن الوطنى والقومى والحضارى ، من خلال ثغرة «الأقليات» . . ولا نزال نعانى من هذا «الإنجاز» الفرنسى حتى الآن . . بل إن موكب الاحتفال الحالى بحملة بونابرت إنما يشى بالامتدادات السرطانية لتراث وأفكار يعقوب اللعين !! . .

● وإذا كنا نشكو من اختراق القانون الغربى لمناطق سيادة الشريعة الإسلامية . . منذ تسلل هذا القانون - فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر - إلى «المحاكم القنصلية» . . ثم «المحاكم المختلطة» (١٢٩٢هـ ١٨٧٥م) . . ثم عموم بلواه فى القضاء الأهلى على يد الاستعمار الإنجليزى - وفى ظل سلطان اللورد «كرومر» (١٨٤١ - ١٩١٧) منذ (١٣٠٠هـ ١٨٨٣م) . . فإن بواكير هذا الاختراق، الذى زاحم شريعتنا الإسلامية وفقهنا الوطنى، حتى

---

(١) د. أحمد حسين الصاوى (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢٣ - ١٢٥ - ملحق رقم ٦ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦م .

أجلاهما عن أغلب ميادين التشريع والقضاء ببلادنا الإسلامية .. إن بواكير هذا الاختراق قد كانت من آثار الحملة الفرنسية على مصر ..

فبعد هزيمة جيش الحملة ، وجلائه عن مصر . . وبعد موت المعلم يعقوب اللعين - على ظهر السفينة التي أقلته مع جيش الحملة الفرنسية إلى مرسيليا - توجه رفقاء المعلم يعقوب - بقيادة «نمر أفندي» - باسم «الوفد المصري» ! - توجهوا إلى مرسيليا . . وكتبوا إلى بونابرت، يعرضون عليه العمل على إحلال القانون الفرنسي محل الشريعة الإسلامية في مصر .. فبعد حديثهم عن «الولاء لبونابرت» تعهدوا «بالتشريع لمصر التشريعات التي ترضى عنها فرنسا ..» !! .. معلنين بذلك ولادة التوجه الفكري - الذي نراه الآن - الداعي إلى إلحاق مصر بأوربا في النظم والتشريعات .. فقالوا لبونابرت : «إن الوفد المصري ، الذي فوّضه المصريون الباقون على ولائهم لك، سيشرّع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا ..»[1] !

● وإذا كنا نشكو اليوم من الاختراق الديني ، الذي تقوم به الكنائس الغربية ، العاملة في خدمة المخططات الاستعمارية في قلب إفريقيا . . ومن استغلالها المشكلات الاجتماعية ، والمنازعات القبلية ، والكوارث الطبيعية - بل وصنعها لكل ذلك - حتى تفقد الناس توازنهم ، فيتم تحويلهم عن دياناتهم ومذاهبهم إلى النصرانية الغربية . . إذا كنا نشكو اليوم من هذا الاختراق النصراني الغربي للقارة الأفرقية - حتى لقد رفعوا شعارًا يقول :

---

(١) المصدر السابق . ص ١٢٩ ، ١٣٠ - ملحق رقم ٧ .

إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م! - فإن بواكير هذا الاختراق هى صناعة فرنسية أيضا!...

فلقد كان إلحاق الكنيسة الأثيوبية - وهى أرثوذكسية - بالكنيسة الرومانية - الكاثوليكية - أحد أحلام لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥م) - أراد تحقيقه بواسطة بعض الأقباط المصريين - أى عن طريق اختراق الكنيسة المصرية - . . فلما فشل فى تحقيقه . . رأينا أتباع المعلم يعقوب اللعين يكتبون إلى وزير الخارجية الفرنسى «تاليران» (١٧٥٤ - ١٨٣٨م) يتعهدون بالعمل على تحقيق مالم يستطع تحقيقه لويس الرابع عشر ! . . فيقولون : «لقد كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر على ضم كنيسة أثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية) . ولكنه كان يسعى فى الحقيقة لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم وسط إفريقيا الجذابة الغامضة . ومن ثم بذل عدة جهود - لم يقدر لها النجاح - لكى يتعلم فى فرنسا عدد من شباب القبط المصريين ؛ لأن بطريرك الأقباط هو نفسه رأس الكنيسة الأثيوبية . وإذا كان الملك قد أخفق فى مسعاه ، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم - إذا أرادت - يمكنها عن طريق الأمة المصرية، التى ستكون موالية لها، مد نفوذها نحو أواسط إفريقيا.. وبذلك تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية»[1] . !! . . أى والله ! هكذا عرض رفقاء المعلم يعقوب - وهم ثمرة الاختراق الفرنسى لوحدتنا الوطنية - عرضوا تسخير مصر وكنيستها الوطنية فى سبيل تحقيق أحلام الاستعمار الفرنسى فى الشرق ، وفى إفريقيا «الجذابة . . الغامضة» - كما قالوا - ! . .

---

(١) المصدر السابق . ص ١٣١ ، ١٣٢ - ملحق رقم ٨ - وتاريخ هذه المذكرة ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١م ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ .

فهل بهذه الاختراقات ، التى صنعها بونابرت وحملته الفرنسية ، يحتفل الفرانكفونيون ؟ ! . .

وإذا قالوا : إنهم يحتفلون «بالفكر . . والثقافة» ، لا «بالمدفع والبارود» . . ففى أى خانة نضع اختراق الوحدة الوطنية . . وبلورة تيار الإلحاق الحضارى لبلادنا بأوربا . . واستبدال التشريع الفرنسى - قانون نابليون - بالشريعة الإسلامية . . وتحويل هوية الأمة - مسلميها ونصاراها - نحو الغرب والتغريب - واختراق الكنيسة المصرية ، للوصول عبرها إلى قلب إفريقيا . . فى أى خانة نضع هذه «الإنجازات» البونابرتية ، إذا لم نضعها فى خانات «الفكر . . . والثقافة» ؟ ! . .

لقد انكشفت الوجوه . . بل وشاهت هذه الوجوه ! . .

* * *

● ويزيد الطين بلة . . أن سجل العار لحملة بونابرت الفرنسية لم يقف عند هذا الذى صنعته بمصر - والذى اكتفينا فى الحديث عنه بإشارات إلى المناطق والميادين غير المطروقة وغير المشهورة ، والتى قد يجادل فيها عبيد الفرنكفونية ، الذين يحتفلون - فى ذكرى الاحتلال - بما يرونه «إنجازات إيجابية» لحملة نابليون . . لم يقف سجل هذا العار - الذى به يحتفلون - عند الاختراق لأمن مصر الوطنى والدينى والفكرى والثقافى . . وإنما تعداه إلى اختراق الأمن القومى العربى أيضا .

خلق المشروع الصهيوني

● فكما سعت الحملة الفرنسية إلى اختراق الأمن الوطني المصري، بتحويل نصارى مصر إلى ثغرة اختراق - بدلا من أن يكونوا لبنة في جدار هذا الأمن الوطني - سعت كذلك إلى تحويل الأقليات اليهودية - في مختلف أنحاء العالم - إلى ثغرة اختراق للأمن القومي العربي، ودعوتهم إلى مشاركة فرنسا في إقامة إمبراطوريتها الاستعمارية في الشرق، مقابل اتخاذهم مواطن أقدام لهذا المشروع الاستعماري الغربي على أرض فلسطين!..

أي أن هذا الذي تشقى به ومنه أمتنا العربية والإسلامية - الكيان الصهيوني المزروع قسرا في فلسطين، والذي يسعى للتمدد على الأرض ما بين النيل والفرات - بإقامة إسرائيل العظمى - .. إن هذا الذي تشقى به ومنه أمتنا إنما بدأ مشروعا فرنسيا، وارتاد ميدان الدعوة إليه بونابرت إبان حملته الفرنسية على مصر والشام..

ففي (١٢١٣هـ ١٧٩٩م)، وأثناء حصار بونابرت لمدينة «عكا»، أصدر نابليون نداءه الشهير إلى الطوائف اليهودية - وهي التي نعمت تاريخيا في الحضارة الإسلامية بما لم تحلم به في حضارة أخرى - أصدر نداءه إلى هذه الطوائف، داعيا إياها كي تتحالف مع جيشه الغازي ومشروعه الاستعماري، لتقوم بدور «ثغرة الاختراق» و«موطئ القدم» و«قفاز القبضة الاستعمارية الغربية»، وذلك مقابل تمكينهم من أرض فلسطين ..

كان بونابرت قد احتل مصر . . وطمح فيما سبق وطمع فيه القديس لويس التاسع : «أن يستعيد البيت المقدس إلى الفرنج عن طريق امتلاك الديار المصرية»! . . فأراد أن يستعين على تحقيق ذلك باستخدام ورقة الأقليات اليهودية، وتراثها الأسطورى حول القدس وفلسطين . . فوجه إليها نداءه، الذى قال فيه :

«من نابليـون بونابرت، القـائد الأعلى للقـوات المسلحـة للجمـهـورية الفـرنسيـة فى إفـريقـيـا وآسيـا . إلى ورثة فلسطين الشرعيين.

أيها الإسرائيليون، أيها الشعب الفريد . . انهضوا بقوة، أيها المشردون فى التيه . . لابد من نسيان ذلك العار الذى أوقعكم تحت نير العبودية، وذلك الخزى الذى شل إرادتكم لألفى سنة . .

إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل .. إن الجيش الذى أرسلتنى العناية الإلهية به .. قد اختار القدس مقرا لقيادته، وخلال بضعة أيام سينتقل إلى دمشق المجاورة، التى استهانت طويلا بمدينة داود وأذلتها ..

ياورثة فلسطين الشرعيين : إن الأمة الفرنسية .. تدعوكم إلى إرثكم بضمانها وتأييدها ضد كل الدخلاء»[1]!

بهذا النداء البونابرتى، وذلك «الإنجاز» الذى بدأته الحملة البونابرتية بدأت خيوط المأساة التى تعيشها أمتنا العربية

(١) محمد حسنين هيكل (المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية) - الكتاب الأول - ص ٣١، ٣٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦ م.

والإسلامية .. مأساة اختراق أمن الأمة، واستنزاف طاقاتها، وقطع وحدة وطن العروبة ودار الإسلام، وضرب مشاريع التقدم والتحرر والنهوض بالصهيونية وكيانها الإسرائيلي الاستعماري على أرض فلسطين ..

فالحملة الفرنسية على مصر كانت البداية .. وبونابرت كان الرائد للصهيونية الحديثة، التي وظفت الأقليات اليهودية في المشروع الاستعماري الغربي - منذ مائتي عام - .. وبعد ذلك تابعت القوى الاستعمارية الغربية السير وراء نابليون وفرنسا .. إنجلترا إبان قيادتها للمد الاستعماري الغربي على الشرق .. ثم أمريكا التي ورثت نفوذ وهيمنة إمبراطوريات الاستعمار القديم في وطن العروبة وعالم الإسلام ..

فهل يستحق هذا «الإنجاز» الفرنسي، وهذه «الريادة البونابرتية» احتفال الفرنكفونيين؟! أم نقول لهم - مرة أخرى - : شاهت الوجوه؟! ..

* * *

خلق المارونية السياسية والتغريب الثقافى

● وعلى ذات الدرب .. درب الاختراق الفرنسى للأمن القومى العربى والحمى الحضارى الإسلامى .. تواصلت جهود الاستعمار الفرنسى ..

فالقديس لويس التاسع (١٢١٤ - ١٢٧٠م) الذى حلم - قبل نابليون - بامتلاك بيت المقدس عن طريق احتلال مصر، هو الذى بدأ الإمساك بخيط «شراكة - العمالة» مع نفر من «الأقلية المارونية» منذ (٦٤٨هـ ١٢٥٠م) ! .. فعندما لقيهم فى الشام، قال : **«نحن مقتنعون بأن هذه الأمة (الجماعة) التى تعرف باسم القديس «مارون» هى جزء من الأمة الفرنسية»**[1] !!

وعلى درب لويس التاسع تواصلت خطوات الاختراق الفرنسى لأمتنا القومى، باستخدام قطاعات من الأقلية المارونية - الكاثوليكية كفرنسا - حتى وصل الاختراق حد رفع شعار : **«أمنا فرنسا»** من قبل قطاع مؤثر من المارونيين، الذين تحالفوا مع الصهيونية فى احتياجها للبنان سنة ١٩٨٢م - محققين بهذا التحالف أحلام نابليون ! ..

ولقد كان لمدارس التبشير والإرساليات الفرنسية الدور الأكبر فى هذا «الإنجاز الفرنسى» - حتى قبل الإسهام الاستعمارى

(١) محمد السماك (الأقليات بين العروبة والإسلام) ص ٧٤ - وهو ينقل عن (وثائق الباب العالى) المجلد الثالث ص ١٠٠ .

المباشر من خلال معاهدة «سيكس - بيكو» (١٣٣٣هـ ١٩١٥م) لتقسيم الولايات العربية العثمانية بين إنجلترا وفرنسا .. والاحتلال الفرنسي المباشر للشام إبان الحرب الاستعمارية العالمية الأولى .. فمدارس البعثة اليسوعية في لبنان - في القرن التاسع عشر - قد اعتبرت التعليم الذي تقدمه لأبناء الطائفة المارونية أساسًا «فتحا بواسطة اللغة» ! .. والقنصل الفرنسي هناك يعتبره «سيطرة على الشعب، تخلق جيشا مارونيا يتفانى في خدمة فرنسا» ! .. أما «بول موفلان» Paul mavelin - أحد كبار اليسوعيين - فيكتب قائلا : «إن تعليم الناس لغتنا - (الفرنسية) - لا يعني مجرد أن تألف ألسنتهم وآذانهم الصوت الفرنسي، بل إنه يعني فتح عقولهم وقلوبهم على الأفكار وعلى العواطف الفرنسية حتى نجعلهم فرنسيين من زاوية ما .. إن هذه السياسة تؤدي إلى فتح بلد بواسطة اللغة» !

وفي مذكرة كتبها القنصل الفرنسي ببيروت - في ١٨ ديسمبر سنة ١٨٤١م - إلى سكرتير الدولة بوزارة الخارجية الفرنسية - بباريس - يقول : «إنه حين ننشر في هذا البلد - بواسطة اللغة الفرنسية - التعليم، والأخلاق، والفنون .. فإننا سوف نسيطر على الشعب، وسيكون لفرنسا هنا، وفي كل وقت - جيش متفان» !! ..

وفي مذكرة أخرى - بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٤٧م - كتبها القنصل الفرنسي «دي لتينو» De lattenaud إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، يصرح بأن إنشاء المدارس اليسوعية في الشام هو السبيل إلى «جعل البربرية العربية - (!!؟) - تنحني لا إراديا أمام الحضارة المسيحية الفرنسية..»[1] !!

---

(١) المرجع السابق . ص ٣٧ - وهو ينقل عن (مراسلات القناصل السياسية) - وزارة الخارجية الفرنسية - مجلد ٢ .

ذلك هو حديثهم - هم - عن مدارسهم وثقافتهم وفنونهم.. وعن مقاصدهم من وراء زرعها في المحيط العربي، بواسطة المارونيين.. فهل بمثل هذا يحتفل المحتفلون؟!..

بل إن هذا «الزرع الفرنسي» في صفوف المارونيين - بالشام - قد تعدت تأثيراته السامة إلى ما وراء الشام ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر هاجر إلى مصر عدد من خريجي هذه المدارس الفرنسية، فأصدروا بمصر صحفا ومجلات، وأقاموا دورا للنشر والثقافة، تحول الكثير منها إلى منابر للتغريب والعلمانية والتشكيك في العقائد الدينية، ومحاولات استبدال العاميات بالعربية الفصحى.. أي تفكيك وتوهين مكونات الهوية الحضارية لأمتنا..

وفي هذا الميدان عمل مثقفون وصحفيون - موارنة - من أمثال أمين شميل (١٢٤٣ - ١٣١٥هـ ١٨٢٨ - ١٨٩٧م) - أول دعاة استبدال العامية بالفصحى - .. وشبلي شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥هـ ١٨٦٠ - ١٩١٧م) المبشر بالإلحاد عن طريق الداروينية والفلسفية الوضعية والمادية .. وفرح أنطون (١٢٩١ - ١٣٤٠هـ ١٨٧٤ - ١٩٢٢م) داعية العلمانية، والمفسر لفلسفة ابن رشد (٥٢٠ - ٥٩٥هـ ١١٢٦ - ١١٩٨م) تفسيرا ماديا! .. ويعقوب صروف (١٢٦٨ - ١٣٤٥هـ ١٨٥٢ - ١٩٢٧م) وفارس نمر (١٢٧٢ - ١٣٧٠هـ ١٨٥٦ - ١٩٥١م) وشاهين مكاريوس (١٢٦٩ - ١٣٢٨هـ ١٨٥٣ - ١٩١٠م) الذين أصدروا مجلة «المقتطف» لتدس الشك واللا أدرية والإلحاد بواسطة النظريات العلمية الغربية - ذات الخلفية الفلسفية الوضعية والمادية - كما أصدروا صحيفة «المقطم» لتكون منبر الإعلام لسياسة الاستعمار الإنجليزي بمصر! ..

وعن هذه «المدرسة - المارونية» - التي تتلمذ عليها الذين يحتفلون بحملة بونابرت - يقول ابن مصر البار، ونموذج الوطنية الصادقة، والعالم المجدد عبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٣هـ ١٨٤٥ - ١٨٩٦م): «إنهم الأجراء.. أضداد مصر والمصريين.. المؤسسين للفتن.. والمترددين على أبواب وكلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف.. فأصبحوا لا شرقيين ولا غربيين، واتخذتهم أوربا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية، وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة.. لقد نبتت لحوم أجسامهم في خدمة الأجنبي، فانفعلت لها أرواحهم، فكلما حولتها عن وجهتها الغربية دارت إليها، فهي قبلة مُصَلَّاهَا التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ»[1]..

كما يتحدث النديم عن مجلة «المقتطف» (١٢٩٣ - ١٣٧١هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٢م) - وهي نموذج ومثال المجلات التي تتلمذ عليها الذين يحتفلون اليوم بحملة بونابرت - فيقول عنهم وعنها: «أعداء الله وأنبيائه، والأجراء الذين أنشأوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم يدينوا بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان»[2]!

(١) مجلة (الأستاذ) الأعداد الرابع والعشرون ص ٥٦٤ - ٥٦٧، والثاني والعشرون ص ٥١٠، والسابع عشر ص ٣٨٨ - ٣٩٠. القاهرة سنة ١٣١٠ هـ.
(٢) المصدر السابق. العدد التاسع والثلاثون ص ٩٢٣، ٩٢٤.

أما صحيفة «المقطم» (١٣٠٦ - ١٣٧١هـ ١٨٨٩ - ١٩٥٢م)، فلقد وصفها النديم بأنها «الجريدة الإنكليزية التي تصدر في مصر[١]» !! .. ووصف أصحابها بأنهم «الأجراء .. الخونة ... عملاء الأجانب .. الذين خانوا وطنهم وسلطانهم وأهلهم وخلانهم .. وذلك عندما داروا حول أبواب الإنكليز .. وأصدروا جريدتهم لشق عصا الاجتماع الشرقي» ![٢]

ذلك هو «الزرع الثقافي الفرنسي» في الشام .. وهذه هي امتداداته السرطانية في مصر .. وهي «المدرسة» التي تتلمذ عليها الفرنكفونيون المعاصرون، الذين يحتفلون بالحملة الفرنسية، والزرع الثقافي الذي زرعته في وطن العروبة وعالم الإسلام ..

* * *

(١) المصدر السابق . العدد الثاني والأربعون ص ١٠٢٩ .

(٢) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون ص ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٤٥ ، ٩٤٧ ، ٩٣٢ .

وعلى الجبهة المغربية أيضا

● ولا يحسبن أحد أن محاولات الاختراق الفرنسية لأمننا الوطنى والقومى والحضارى - فى الواقع السياسى والفكرى - قد اقتصرت على ثغرات الأقليات غير الإسلامية - قبط مصر .. وموارنة لبنان .. واليهود - فلقد عمت محاولات الاختراق هذه حتى الأقليات القومية ذات الأصول العرقية غير العربية .. وكان صنيع الاستعمار الفرنسى مع المسلمين الأمازيغ - وخاصة فى الجزائر والمغرب - نموذجا لهذا الاختراق - من خلال الفكر والثقافة .. وفى اللغة والقانون - ..

فالأمازيغ - الذين يمثلون أكبر الأقليات القومية فى الوطن العربى عددا - ١٤,٠٠٠,٠٠٠ (أربعة عشر مليونا) - أى ضعف عدد كل الطوائف النصرانية العربية الثلاث عشرة - ٧,٠٠٠,٠٠٠ (سبعة ملايين)[1] - حتى وإن لم نأخذ بالآراء التى ترجعهم إلى أصول عربية قديمة - قد جمعهم الإسلام بالعرب، فى العقيدة والشريعة والثقافة والحضارة والتاريخ والقيم والأخلاق والعادات والتقاليد.. بل لقد نهضوا بدور بارز فى تكوين الدول الإسلامية، والجهاد الإسلامى والفتوحات الإسلامية.. وبسبب من كون العربية لغة القرآن ولسان الإسلام وسبيل فقه الشريعة الإسلامية والسنة

---

(١) رفيق البستانى، فيليب فارج (أطلس معلومات العالم العربى) ص ٣١، ٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٤م.

النبوية، أصبحت العربية هي لغة الأمازيغ الأولى، مع بقاء لغاتهم القديمة - غير المكتوبة - متداولة، تقوم بمقام اللهجات فى حفظ الموروث القومي، والمخاطبات في بعض الشئون الحياتية اليومية الدارجة..

ومع ذلك.. وجدنا مخطط الاختراق الفرنكفونى - للاستعمار الفرنسى - ولغته الفرنسية وقانونه الوضعى، يتخذ من الأمازيغ جبهة من جبهات تفكيك الأمة، بعزلهم عن العرب، وفصل إسلامهم عن اللغة العربية، وقطع الصلات بين عقيدتهم الإسلامية وبين الشريعة الإسلامية وفقه المعاملات فيها.. وذلك ليربطهم بفرنسا، وليحل لغته محل عربيتهم، وقانونه محل شريعة الإسلام وقانونها وفقه معاملاتها..

وعن هذا المخطط الفرنكفونى يقول الكاتب الفرنسى «فيكوربيكيه» - فى كتابه (العنصر البربرى) - الصادر سنة ١٩٢٥م - : «إننا نشاهد تغلب العربية فى السهول ، حيث السكان العرب ، وهذا يمكننا تعليله بأن اللغة البربرية لا تكتب ، وبأن اللغة العربية هى لغة القرآن . وقد لعبت «الكتاتيب» دوراً هاماً فى الاستعراب ، ولذلك فإن كل مجهوداتنا يجب أن تصب على تعليم البرابرة الفرنسية، بلا واسطة لغة أخرى. لقد هيأنا سنة ١٩٢٣م للمدرسة برنامجا فرنسيا بربريا له روح فرنسية كاثوليكية.. وهذه خطة حسنة لو قف التعامل مع اللغة العربية على أنها لغة التفاهم، ويمكننا بسهولة كتابة البربرية بالحروف الفرنسية، كما فعلنا بالهند الصينية.

وإذا لم يمكننا عقد الأمل على رجوع البربر عن الإسلام، ونبذهم لهذا

الدين، لأن جميع الشعوب لا تبقى بدون دين فى مرحلة تطورها، فيجب أن لا نخشى من ذلك، خاصة إذا تمكنا أن نفصل بين الإسلام والاستعراب.. وفصل الدين عن القانون المدنى، مثلما حدث بإدخال تغييرات هامة سنة ١٩١٧م فى قانون الأحوال الشخصية.. ولذلك يمكننا أن نحصر الإسلام فى الاعتقاد وحده.. وعلى هذا لا يهمنا كثيرا أن تضم الديانة الشعب كله، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها. فالديانة الكاثوليكية تستعمل اللغة اللاتينية والإغريقية والعبرانية فى قداديسها...!

فهدف المخطط الفرنكفونى - لتفتيت الأمة، من باب الثقافة - هو: علمنة الإسلام، وفرنسة اللغة، لإحلال القانون الفرنسى محل الشريعة الاسلامية وفقه معاملاتها، ولإحلال الفرنسية محل العربية، وبذلك تندمج الأعراف البربرية فى القانون الفرنسى، ويصبح الأمازيغ فرنسيى اللغة.. أى يتم دمجهم فى الثقافة الفرنسية دمجا تاما!..

وليست هذه الثمرات والمقاصد بالاستنتاج الذى نستنتجه نحن.. وإنما هى اعترافات الأستاذ الفرنسى للحقوق فى معهد الدروس العليا - «بالرباط» - «جورج سوردون» - بكتابه (مبادئ الحقوق العرفية المغربية) - الصادر بالرباط سنة ١٩٢٨م - والذى يقول فيه :

«يجب جمع العادات البربرية.. لئلا تضمحل فى الشرع الإسلامى.. إذ العرف ينمحى إزاء القانون.. والأولى أن نرى العرف البربرى يندمج فى القانون الفرنسى من أن نراه يندمج فى القانون الإسلامى، لأن الأسلحة الفرنسية هى التى فتحت البلاد العربية، وهذا يخولنا اختيار التشريع الذى يجب تطبيقه فى هذه البلاد»!

فهل يعي ويفهم الفرنكفونيون، الذين يزعمون أنهم إنما يحتفون ويحتفلون بثقافة فرنسا لا بمدافعها.. هل يعون المعنى الواضح لكلمات «جورج سوردون»، والتى تقول إن الأسلحة الفرنسية إنما استخدمت لتطبيق القانون الفرنسى فى البلاد العربية.. فقانون نابليون هو الثمرة لمدافع نابليون !!

وهذا الذى كتبه «الأساتذة» و «الكتاب» الفرنسيون .. هو ذاته الذى طبقته السلطة الاستعمارية الفرنسية .. فالمقيم العام الفرنسى - بالمغرب - المارشال «ليوتى» ، يصدر أوامره إلى وزارة العدل باستبعاد اللغة العربية ، وفك ارتباطها بالإسلام ، لدمج البربر فى فرنسا - عن طريق اللغة الفرنسية والقانون الفرنسى - فيقول فى أوامره : «إنه لخطأ فاحش التصرف بشكل يساعد على إعادة إحياء العلاقة بين العرب والبربر. ولا حاجة فى تعليم العربية للبربر، فالعربية هى رائد الإسلام، لأن هذه اللغة تُعَلَّم من القرآن، ومصلحتنا هى أن نمدن البربر خارج دائرة الإسلام. وأما ما يتعلق باللغة، فيجب علينا أن نضمن الانتقال مباشرة من البربرية إلى الفرنسية بدون واسطة..»![1]

تلك هى مخططات الاختراق الفرنسى لأمتنا الفكرى والثقافى - فى الدين والدنيا - على المستوى الوطنى والقومى والحضارى .. فأين ياترى هذه «الثقافة المجردة» - الخالصة من شبهات الغزو والحرب - التى يحتفل بها الفرنكفونيون ؟! ..

* * *

(١) د . محمد عمارة (الإسلام والتعددية : التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة) ص ٢٧٦ - ٢٧٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م .

وخرافة المطبعة.. والمجمع العلمى

وإذا كنا قد كشفنا خرافة الإنجازات السياسية والإدارية والديمقراطية التى يزعم الفرنكفونيون أن بونابرت قد أدخلها إلى مصر - بما أنشأ من «ديوان المشورة» - عندما كشفنا - نقلا عن الجبرتى - أن هذه المؤسسات كانت أداة القمع الفرنسى، التى غلّب فى عضويتها «أراذل القبط» و «النصارى الأروام» الذين خانوا وطنهم مصر - .. فإن مزاعم الفرنكفونيين حول «المطبعة» التى جاء بها بونابرت إلى مصر .. وكذلك «المجمع العلمى المصرى» الذى أسسه ببلادنا .. إن هذه المزاعم هى ألوان من الخرافات التى لا أصل لها فى التاريخ ..

فبونابرت - وهو فى طريقه إلى مصر - «أحضر معه مطبعة «البروباجندا» من «إيطاليا» ليطبع بها بيانات التضليل للشعب المصرى، تلك التى زعم فيها أنه مسلم أكثر من المماليك، ونصير لخليفة المسلمين على عكس المماليك!.. «ثم خرجت هذه المطبعة من مصر بخروج الحملة الفرنسية»[1] فلم يكن لها أى أثر ثقافى يبرر احتفال الفرنكفونيين!.

أما المطبعة التى نهضت بالدور الريادى فى ثقافة مصر العربية والإسلامية - مطبعة بولاق - الأميرية - فهى التى فكر محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) فى إنشائها (١٢٣٠هـ ١٨١٥م) واشتراها

---

(١) د. جمال الدين الشيال (تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على) ص ١٩٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٥١م.

من مـال الدولة المصـرية، وبدأ إنتـاجـهـا - على الأرجح - (١٢٣٥هـ ١٨٢٠م)[1] وهي مطبعة وطنية.. أميرية.. قامت في بولاق.. ولا علاقة لها بمطبعة «البروباجندا» التي جلبها نابليون من الفاتيكان، ليضلل المصريين بمنشوراتها..

فهل يحتفل الفرنكفونيون بمطبعة «البروباجندا» وما صدر عنها من أضاليل؟!..

أما «المجمع العلمي المصري»، الذي يزعم الفرنكفونيون أن نابليون قد أسسه.. فإنه - هو الآخر - خرافة من الخرافات.. فالبعثة العلمية الفرنسية التي صحبت جيش الحملة البونابرتية، قد جاءت لتدرس الواقع المصرى، حتى يستطيع الغزاة حكمه.. ولتدرس الشخصية المصرية، حتى يسهل على المستعمرين السيطرة عليها.. ثم انسحبت هذه البعثة - مع جيش الاحتلال (١٢١٦هـ ١٨٠١م).. ولا علاقة لهذه البعثة الفرنسية - التي واصلت أبحاثها بعد الجلاء في فرنسا - لا علاقة لها «بالمجمع العلمي المصرى» على الإطلاق.. فالمجمع العلمي المصرى هو مجمع وطني، قام في سنة ١٨٥٩م - على عهد الخديوى سعيد (١٢٧٠ - ١٢٧٩هـ ١٨٥٤ - ١٨٦٣م) - أي بعد ما يقرب من ستين عاما على جلاء الحملة الفرنسية والبعثة العلمية الفرنسية التي صحبتها!!..

فبأي مطبعة.. وبأي مجمع يحتفل الفرنكفونيون؟!..

وبأي ثقافة يحتفلون؟!..

لقد كان الدكتور طه حسين (١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣م) شجاعا، عندما اعترف - في لحظة صدق مع واقع التغريب - بأن التبعية

---

(١) المصدر السابق، ص ١٩٥.

الفكرية لأوربا هي «إلزام» أكثر منها «التزام» أو «اختيار».. فقال في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) - الذي ألفه عقب معاهدة سنة ١٩٣٦م - بين مصر وإنجلترا - ومعاهدة الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٣٨م -:

«لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع. التزمنا هذا كله أمام أوربا. وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال - (١٩٣٦م) - ومعاهدة إلغاء الامتيازات - (١٩٣٨م) - إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع؟..»[1]

ولقد بدأ هذا الإلزام بحملة بونابرت .. وما أحدثته من اختراقات لأمننا الوطني والقومي والحضاري - في الفكر .. والثقافة .. والقيم .. والتشريع .. واللغة .. والأخلاق - ..

ويشهد على ذلك أيضا أن الفرنكفونيين - الذين يحتفلون بهذا الاختراق البونابرتي .. إنما يصنعون ذلك لأن ثقافتهم هي عين ثقافة هذا الاختراق .. فهم امتدادات سرطانية لهذا الاختراق الذي به يحتفون ويحتفلون! .. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لكن العزاء هو في رفض الأمة لهذا الانحدار: الذي سقط فيه خلفاء «المعلم يعقوب اللعين»!

(١) (مستقبل الثقافة في مصر) جـ١ ص ٣٦، ٣٧ - طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

أوراق ووثائق الاختراق

١ - «الإعلان - الإنذار» الموجه من بونابرت إلى المصريين..

٢ - جيش الخيانة الوطنية: - (وصف الجبرتي للفيلق القبطي، الذي كوّنه وقاده المعلم يعقوب).

٣ - رثاء الخيانة للاحتلال: القصيدة الزجلية التي رثى بها المعلم يعقوب الجنرال الفرنسي «ديزيه»..

٤ - وصية الجنرال يعقوب بتبعية مصر لإنجلترا - بعد فشل الحملة الفرنسية -..

٥ - إعلان الولاء لبونابرت: رسالة رفاق الجنرال يعقوب إلى بونابرت - عارضين الولاء والخدمات..

٦ - اختراق إفريقيا بواسطة مصر: رسالة رفاق الجنرال يعقوب إلى وزير الخارجية الفرنسي..

٧ - واختراق منظومة القيم: وصف الجبرتي لطرف مما أحدثته الحملة الفرنسية على جبهة القيم الإسلامية والشرقية..

١ - إعلان بونابرت إلى المصريين

(كانت باكورة مطبوعات مطبعة «البروباجندا» - التى جاء بها بونابرت إلى مصر - والتى يزعم الفرنكفونيون أنهم يحتفلون بإنجازاتها فى تنوير مصر والمصريين - هذا «الإعلان - الإنذار» الذى وجهه بونابرت إلى المصريين عند بدء احتلاله لديارهم . .

وجميع ما فى هذا الإعلان : أكاذيب : وتهديد ووعيد ! . .

● ففى الوقت الذى لم يستطع فيه بونابرت إخفاء حقيقة أن عداءه للمماليك المصرية إنما سببه الضرائب التى كانوا يحصلونها من التجار الفرنسيين - «فهم يتعاملوا بالذل والاحتقار فى حق الملة الفرانساوية، ويظلموا تجارها بأنواع البَلَص - (الإتاوات) - والتعدى، فحضر الآن ساعة عقوبتهم» - !

وهو اعتراف منه بجانب من الأسباب الاقتصادية للحملة . .

● تراه يزعم أن غزوته هذه إنما هى تنفيذ للقدر الإلهى - «فرب العالمين، القادر على كل شىء، قد حتّم على انقضاء دولتهم» - (أى دولة المماليك) - . .

● وعندما كذب بونابرت كذبته الكبرى - فى هذا الإعلان - فزعم : أنه «والفرنساوية مسلمين خالصين.. وأنه أكثر من المماليك يعبد الله - سبحانه وتعالى - ، ويحترم نبيه محمد، والقرآن العظيم» !.

كشف المصريون - بالفطرة الإسلامية - رغم عدم اطلاعهم يومئذ على الفلسفات الأوربية - كشفوا «وضعية . . ومادية . .

ودهرية . . وإلحاد» بونابرت وحملته وفكرية الدولة الفرنسية . . فقال الجبرتى - معلقا على كذبة بونابرت هذه - : «لاشك أن هذا خبل في العقل، وغلو في الجهل. أيُّ عبادة - فضلا عن كثرتها - مع كفر غطى على فؤاده، وحجبه عن الوصول إلى رشاده؟! ولو احترم نبينا لاحترم أمته.. إن إسلامهم نصب.. ولقد خالفوا النصارى والمسلمين، وهم دهرية معطلون، وللمعاد والحشر منكرون، وللنبوة والرسالة جاحدون»!![1]

و «المضحك - المبكى» ، أنه فى الوقت الذى كانت فيه مطبعة بونابرت تحدث المصريين - لتخدعهم - عن «إسلامه ، وعبادته لله ، واحترامه لنبى الإسلام ، وقرآنه العظيم» . . كانت ذات المطبعة تطبع - فى صحف الحملة الفرنسية - الأشعار التى تتحدث عن بونابرت باعتباره «الإله» الذى يقود جيشا من الأبطال . . والذى لابد للآلهة الأخرى أن تطأطئ له الرؤوس ! . . ففى قصيدة «المواطن جالان» يتحدث عن بونابرت فيقول :

«من هو هذا الإله الذي يتقدم، ويندفع كالبرق فى الممرات الخالدة.

فيجعلنا نؤمن بالوهم والخيال.

يا آلهة اليونان وروما طأطئوا رؤوسكم الشامخة.

أيها الغزاة القدامى، لقد كان تعطشكم للمجد وحده هو الذى يقودكم إلى النصر.

أما بونابرت فله وحده ينبغى تقديم القرابين.

(١) (مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس) ص ٣٤ تحقيق : حسن محمد جوهر، وعمر الدسوقى - طبعة القاهرة سنة ١٩٦٩ م .

فهو إله يقود جيوشا من الأبطال!»[٢].

● وإذا كان بونابرت لم يدع الألوهية فى المنشورات التى وجهها للشعب المصرى .. فلقد ادعى أنه مبعوث العناية الإلهية، الذى تحدثت آيات القرآن عن حملته على مصر! .. لقد افترى فزعم أنه علام الغيوب، الذى يعلم سرائر النفوس والقلوب! .. فخاطب المصريين وقال:

«أيها العلماء والأشراف. أعلموا أمتكم أن الذى يعادينى ويخاصمنى إنما خصامه من ضلال عقله وفساد فكره، فلا يجد ملجأ ولا مخلصا ينجيه منى فى هذا العالم، ولا ينجو من يد الله لمعارضته لمقادير الله - سبحانه وتعالى - والعاقل يعرف أن ما فعلناه بتقدير الله وإرادته وقضائه.. والقرآن العظيم صرح فى آيات كثيرة بوقوع الذى حصل..

واعلموا أيضا أنى أقدر على إظهار ما فى نفس كل واحد منكم، لأننى أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه.. إن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهى لا يُرَدّ، وإن اجتهاد الإنسان غاية جهده لا يمنعه عن قضاء الله الذى قدّره وأجراه على يدىّ»!!

ولقد وصف الجبرتى هذا «الافتراء البونابرتى» فقال: «إنها تمويهات على العقول، وتسلّق على دعوى الخواص من البشر، بفاسد التخيلات التى تنادى على بطلانها بديهة العقل، فضلا عن النظر»![٣]

* * *

(٢) صلاح البستانى (صحف بونابرت فى مصر) جـ ٢ ص ٣٢٠ . طبعة القاهرة .
(٣) (عجائب الآثار) جـ ٥ ص ٤ - ٦ .

هذا عن أحد نماذج الكذب والشرك والهرطقة فيما طبعته مطبعة حملة بونابرت فى مصر ..

● أما عن الإنذارات والتهديدات وألوان الوعيد .. فيكفى أن تعرف أن بونابرت قد طلب من المدن والقرى المصرية : التى تمر بها جيوش الحملة ، والواقعة على مسافة مسيرة ثلاث ساعات من طرق مرور الجيوش - أن تعلن استسلامها وخضوعها ، برفع الأعلام الفرنسية - «نَصْب السناجق الفرانساوى ، الذى هو أبيض وكحلى وأحمر» - وأن جزاء المقاومة ، وعدم إعلان الاستسلام هو الحرق بالنار ! «فكل قرية تقوم على العسكر الفرانساوى تنحرق بالنار» ! - بل إن مقابر الموتى لم تسلم من الهدم «خوفا من تترس المحاربين بها» ! .. كما يقول الجبرتى[٤] .

ولأن مصر لم تستسلم .. ولم ترفع رايات الخضوع ، و «تنصب السناجق الفرانساوى» .. فلقد كان مرور جيش بونابرت يتم بين قرى مدمرة ومحروقة ، على امتداد مسيرة ثلاث ساعات ، عن اليمين وعن الشمال !! ..

وعلى امتداد سنوات الاحتلال الثلاث .. ثارت أغلب القرى والمدن المصرية .. وطبق الفرنسيون هذا الوعيد - الذى جاء بالإعلان الذى كان باكورة مطبعة نابليون ! - ..

* * *

أما النص الكامل لهذا «الإعلان - الإنذار» فهو :

---

(٤) (مظهر التقديس) ص ٣١٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ولد له ولا شريك فى ملكه

من طرف الجمهور الفرانساوى، المبنى على أساس الحرية والتسوية، السر عسكر[٥] الكبير بونابرته، أمير الجيوش الفرانساوية. يعرّف أهالى مصر جميعهم أن من زمان مديد السناجق[٦] الذين يتسلطنوا فى البلاد المصرية يتعاملوا بالذّل والاحتقار فى حقّ الملّة[٧] الفرانساوية ويظلموا تجّارها بأنواع البلص[٨] والتعدى فحضر الآن ساعة عقوبتهم.

وحسرتا، من مدة عصور طويلة هذه الزمرة المماليك المجلوبين من جبال الأبازا[٩] والكرجستان[١٠] يفسدوا فى الإقليم الأحسن الذى يوجد فى كرة الأرض كلها: فأما رب العالمين القادر على كل شئ قد حتم على انقضا دولتهم.

ياأيها المصريين. قد يقولوا لكم إننى ما نزلت فى هذا الطرف

إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدّقوه، وقولوا للمفتريين: إننى ما قدمت إليكم إلا لكيما أخلّص حقكم من يد الظالمين وإننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه محمّد والقرآن العظيم.

---

(٥) أى القائد العام. وكانت تكتب - أحيانا - «سارى عسكر» و «صارى عسكر» والصارى: العمود الذى يرفع عليه العلم.

(٦) مفردها «سنجق» تطلق على الإقليم.. وعلى حاكمه..

(٧) الملة: الأمة..

(٨) مفردها: بلصة.. وهى الإتاوة..

(٩) أى قبيلة «أباظة» الشركسية.

(١٠) الكرج: فى جورجيا الحالية، بوسط آسيا.

وقولوا أيضا لهم : إن جميع الناس متساويين عند الله ، وإن الشي الذي يفرّقهم من بعضهم بعضا فهو العقل والفضايل والعلوم فقط . وبين المماليك ما العقل والفضايل والمعرفة التي تميّزهم عن الآخرين وتستوجب أنهم يتملكوا وحدهم كلما[11] يحلوا به حيات[12] الدنيا .

حينما يوجد أرض مخصبة فهي مختصّة للمماليك ، والجواري الأجمل والخيل الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خاصا .

إن كانت الأرض المصرية التزام[13] للمماليك فليورّون الحجّت[14] التي كتبها لهم الله ، فلكن رب العالمين هو رؤوفا وعادل على البشر ، بعونه تعالى من اليوم فصاعدا لا يستثنى أحدا من أهالي مصر عن الدخول في المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعقلا والفضلا والعلما بينهم سيدبروا الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها .

سابقا في الأراضي المصرية كانت المدن المعظمة ، والخليجات[15] الواسعة والمتجر المتكاثر ، وما أزال ذلك كله إلا الطمع وظلم المماليك .

إيها القضات[16] والمشايخ والأيمة (الائمة) ويأيها

---

(١١) أى : كل ما .

(١٢) أى : حياة .

(١٣) الالتزام : شكل من اشكال الاستغلال الإقطاعي للأرض ، ظل سائدا حتى عصر محمد علي باشا

(١٤) أى حجة ووثيقة الالتزام والاختصاص.

(١٥) أى الخلجان : الأراضى الخصبة التي كانت قبل زراعتها خلجانا ، تجرى فيها المياه

(١٦) إى القضاة .

الشورباجية[17] وأعيان البلد ، قولوا لأمتكم : إن الفرانساوية هم أيضا مسلمين خالصين[18] ، وإثباتا لذلك قد نزلوا فى رومية الكبرا وخربوا فيها كرسى البابا الذى كان يحث دايما النصارا على محاربة الإسلام ، ثم قصدوا جزيرة مالطه وطردوا منها الكواللييرية[19] الذين كانوا يزعموا أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين . ومع ذلك الفرانساوية فى كل وقت من الأوقات صاروا المحبين الأخلصين لحضرة السلطان العثمانلى ، وأعدا أعدايه[20] ، أدام الله ملكه .

وبالمقلوب المماليك امتنعوا من إطاعة السلطان غير ممتثلين لأمره فما طاعوا أصلا إلا لطمع أنفسهم .

طوبى ثم الطوبى لأهالى مصر الذين يتفقوا معنا بلا تأخير فيصلح حالهم ويعلى مراتبهم طوبى أيضا للذين يقعدوا فى مساكنهم غير مايلين لأحد من الفريقين المحاربين فإذا يعرفونا بالأكثر يتسارعوا إلينا بكل قلب .

لكن الويل ثم الويل للذين يتحدوا مع المماليك ويساعدوهم فى الحرب علينا فلا يجدوا طريق الخلاص ولا يبقى منهم أثر .

المادة الأولى

جميع القرى الواقعة فى دايرة قريبة بثلثة ساعات عن المواضع التى يمرّ بها العسكر الفرانساوى فواجب عليها أنها ترسل للسر عسكر

---

(١٧) مفردها : شوربجى . . . وهم الوجهاء .

(١٨) أى مخلصين وصادقين .

(١٩) هم فرسان القديس يوحنا : طائفة قامت بعد الحروب الصليبية ، احترفوا القرصنة والاعتداء على تجارة المسلمين وأملاكهم .

(٢٠) أى : الأكثر عداء لأعداء السلطان .

بعض وكلا من عندها لكيما يعرفوا المشار إليه أنهم طاعوا وأنهم نصبوا السنجاق الفرانساوى الذى هو أبيض وكحلى وأحمر"[21]

المادة الثانية

كل قرية التى تقوم على العسكر الفرانساوى تنحرق بالنار .

المادة الثالثة

كل قرية التى تطيع العسكر الفرانساوى الواجب عليها نصب السنجاق الفرانساوى وأيضا نصب سنجاق السلطان العثمانلى محبنا ، دام بقاه .

المادة الرابعة

المشايخ فى كل بلد ليختموا حالا جميع الأرزاق والبيوت والأملاك بتاع المماليك ، وعليهم الاجتهاد الزايد لكيلا يضيع أدنا شى منها .

المادة الخامسة

الواجب على المشايخ والقضات والأيمة أنهم يلازموا وظايفهم . وعلى كل واحد من أهالى البلد أنه يبقى فى مسكنه مطمائن ، وكذلك تكون الصلات[22] قايمة فى الجوامع على العادة ؛ والمصريين بأجمعهم ليشكروا فضل الله سبحانه وتعالى من انقراض

(٢١) أى رفعوا العلم الفرنسى ؛ إعلانا للخضوع وعدم المقاومة .
(٢٢) أى الصلاة .

دولت[٢٣] المماليك قايلين بصوت عالى : أدام الله إجلال السلطان العثمانلى ، أدام الله إجلال العسكر الفرانساوى ، لعن الله المماليك ، وأصلح حال الأمة المصرية .

تحرير بمعسكر إسكندرية فى ١٣ من شهر مسيدور سنة ٦ من إقامة الجمهور الفرانساوى ، يعنى فى أواخر شهر محرم سنة ١٢١٣[٢٤] هجرية .

---

(٢٣) أى دولة .

(٢٤) كان وصول جيش بونابرت إلى الاسكندرية – وإذاعة هذا البيان – فى ١٧ محرم سنة ١٢١٣هـ الموافق أول يوليو سنة ١٧٩٨م . انظر : (التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الافرنكية والقبطية) لمحمد مختار باشا ، ص ١٢٥ . دراسة وتحقيق : د محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م – (ولقد رجعنا فى نص «الإعلان» إلى ملاحق كتاب «المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة» ص ١٠٥ – ١٠٨) .

٢ - جيش الخيانة الوطنية

(وإذا كانت مصر قد عرفت الكثير من الغزوات والغزاة . . ولم تعدم أن يمرق آحاد من أبنائها عن الوطنية ، فيميل إلى هؤلاء الغزاة . . فإن الاختراق الفرنسى لأبناء الطوائف غير المسلمة قد بلغ بالخيانة حداً غير مسبوق فى تاريخ مصر والمصريين . . فلقد تكونت للخيانة «فيالق» عسكرية ، حاربت الشعب مع جيش الاحتلال . . حدث ذلك من «أراذل القبط» - الذين قادهم المعلم «يعقوب حنا» - . . ومن النصارى الأروام . . والنصارى الشوام - الذين قادهم أمثال «ملطى» و «فرط الرمان» ! - . .

ولقد صور الجبرتى القلعة العسكرية المحصنة ، التى أقامها «يعقوب اللعين» بقلب القاهرة ، مقراً لقيادة الفيلق القبطى ، الذى جنده ، وقاده مشاركاً به فى فتح مدن وقرى الصعيد . . صور الجبرتى ذلك ، فقال :)

«ومنها - (أى ومن أحداث هذه المحنة) :

أن يعقوب القبطى اللعين، لما تظاهر مع الفرنساوية، وقلدوه «صارى عسكر القبطة»، جمع شبان القبط، وحلق لحاهم، وزياهم بزى مشابه لعسكر الفرنساوية، مميزاً عنهم بقبعات يلبسونها على رؤوسهم، مشابهة لشكل البرنيطة، وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم فى غاية البشاعة، مع ما يضاف إليها من قبح صورهم، وسواد

أجسامهم، وزفارة أبدانهم، وجعلهم عسكره وعزوته. وجمعهم من أقصى الصعيد.

وهدم الأماكن المجاورة لحارة النصارى - التي هو ساكن بها - خلف الجامع الأحمر. وبنى له قلعة، وسوّرها بسور عظيم، وأبراج، وباب كبير، يحيط به بدنات عظام.

وكذلك بنى أبراجا في ظاهر الحارة، جهة بركة الأزبكية. وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقان للمدافع وبنادق الرصاص - على هيئة سور مصر، الذي رمّه الفرنساوية - .

ورتب على باب القلعة، الخارج والداخل، عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلا ونهارا، وبأيديهم البنادق، على طريقة الفرنساوية..»[1]!!

(١) (مظهر التقديس) ص ٣١١، ٣١٢.

٣ - رثاء الخيانة للاحتلال

(. . وإذا كانت الخيانة ، التى أوجدتها ورعتها الحملة الفرنسية فى مصر ، قد مثلت اختراقا للوطنية والأمن الوطنى ، فى صورة «الفيلق القبطى» ، الذى قاده «المعلم يعقوب حنا» والذى شارك الجيش الفرنسى - تحت قيادة الجنرال «ديزيه» - فى فتح وهدم وإحراق مدن وقرى الصعيد ، وقتل الأحرار ، واغتصاب الحرائر . . فإن هذه الخيانة قد بلغت بالمعلم يعقوب - الذى يرى فيه المتغربون والفرانكفونيون رائد «الاستقلال» المصرى !! - حد الرثاء المتوله للضابط الفرنسى الجنرال «ديزيه» - عندما قتل بإيطاليا سنة ١٨٠٠م - فرثاه يعقوب بقصيدة من الزجل الركيك ، تحدث فيها عن «بطولته» و«شجاعته فى «إخضاع وترويض البرابرة، أعداء الله والبشر، من أهل مصر» !!

وهذا هو نص الرثاء - الذى يستحق الرثاء - !) .

إنا لله وإنا إليه راجعون

الحمد لله محرك آلات الألسن الأوانس ، بأنغام اللغات الدوامس[1] ، وكاشف الغطاء الدلامس[2] ، عن الآثار الدوارس[3] . نحمده حمدا وشكرا لائقا بإله مبدع وخالق ، بارئ المبرورات والخلائق ، مكوّن الأرض والسموات ، يصور الأحياء والأموات ، مميز

(١) الخفية . والدَّمس : هو الدفن والإخفاء .
(٢) المظلم .
(٣) التى درست ، فلم يعد لها وجود .

النفائس من الخسائس . فلا إله غيره ، ولا خير إلا خيره ، وهو المالك والسايس آمين .

وبعد ، فهذا دعاء جليل سديد : به ننتحب وفات[4] عزيزه ، الجنرال داسة[5] صاحب الأمير يعقوب ، سارى عسكر القبط الجديد ، فيقول .....

أذرفنا على ذكر الحبيب دموعا
سكرنا بها ليوم البعث والحشر
حبيبٌ وقد ذاع صيته أبدا
بطل وقد عرف في سائر القطرِ
فتلألأت شجاعته وعقله ثم فطنته
وشرح احتقاره الدنيا بالنظم والنثرِ[6]
وقد فاز بها على المماليك إجمالا
ظافر بأرقابهم[7] نصرا بالعز والقهرِ
وأخضع تشامخ جماعة البربر
مروّضا أخلاق أهل إقليمنا[8] المصرِ

(٤) أى : وفاة .
(٥) الجنرال «ديزيه» .
(٦) أى : النثر .
(٧) المراد : الرقاب ، جمع رقبة .
(٨) لا يخجل المعلم يعقوب من جعل إخضاع أهل مصر وترويضهم فضائل للجنرال ديزيه .. ويزيد على ذلك فيصف أهل مصر بالبربر !

بل وأهل تيبايس[9] المشمرة ومن
كان قاطنا بالبر ثم والقفرِ
فاعجب بمن كان محبوبا ثم مرغوبا
حتى ومن كادهم بالحرب والقهرِ
داسّه قاتح بلادنا بناحية قبلى
يضرب ويشفى ولا يدنو إلى الغدرِ
صنديد مجاهد وخصم محارب ولكنه
طبيب مداوي الجراح بالزيت والخمرِ
فآها على ناصرى داسّه ووا أسفى
على اصطحابى به لو قدر القدرِ
فكنت أرغب وجودى بميدانى مارنجوا[10]
كما رافقته قبلاً بصعيدنا المصرى
فكنت أرجو وجودى لمعاونة عزّى
كما صاحبته قبلا بالعز والنصرِ
فصرت عنه فداء كان يغنيه
عن فقد حياة مفيدة ذكرها دهر
أموت عن من حياته دوامها نفع
ودوامها لخير عام والفخر والظفرِ

---

(٩) أهل «طيبة» - أي الأقصر - بصعيد مصر - يفخر بأطلال عاصمة مصر الفرعونية !

(١٠) مكان المعركة التي قتل فيها «ديزيه» - بإيطاليا - سنة ١٨٠٠م

ولكنه وإن مات فهو حيّ وما
زال ذكره من دهر إلى دهر
ولم يزل بفكرى مخلدا أبدا
حتى إلى خروج الروح من صدرى
وظلّ نفسه الجميلة محتفٌ أنوارا
متدبّرا بالتساع[11] فضاء الجو كالقمرِ
فيصطحب مع الأقدمين مشتركا
يمتزيّنا ببهاء أشعة الحب للبشرِ
ويشاهد عيانا برج حظ بونابارته
وما خصه الله من العظمات والقدرِ
وباتحاد[12] مربع وبهذا القدر مستغرب
يرجف البربر أعداء الله والبشرِ
فيحصل الخير وينجح أهل مشرقنا
ويعود النظام وترا[13] النفع قد صدرِ
فيا من قطن ببلدة الأحياء والقبطة
ونفسك هناك تحضى[14] داخل الخدرِ

---

(١١) أى يستدير حوله الفضاء ، وهو مركزه - كالقمر - ! .
(١٢) أى اتحاد ... وغموض المعنى يقل فى ضوء حديث البيت السابق عن «برج حظ بونابارته» ... فقيه إشارة لمصطلحات فى أبراج الحظ .
(١٣) أى : ترى .
(١٤) أى : تحظى .

جُسد علىّ بلحظ العين مترأفا

وانظر إلىّ بأسنى برقة البصر

فانظر إلى شعبنا وشقاء حالته

فغدت حياتنا لا تخلو من الكدرِ

لاحظ المصريين وكيف كانوا قديما

وعبيدا غدوا الآن للرق واليسر[١٥]

فكم كنت تعجب أنت من مفاخرهم

وتيبايس[١٦] القديمة يعلق ذكرها الخبر

فمنك نرجو الشفاعة يامعضد الأول

فلا تدع مصرنا لسابق القهرِ

ومن بعد حكم الفرنسيس أعواما

فلا تسبّبها لحاكم يسوس بالقسر

وإذا خُليت[١٧] بصلح عام منتقلة

من يد ليد حاكم متعجرف ومفترِ

فمنك طالب العون ياداسّه بأجمعنا

واسمك بباريس حمانا ياشائع الذكرِ

فبنا اعتنى لدوامنا بناحية قبلى

لتنجوا بحياتنا من الموت والخسر

---

(١٥) أى : الأسر ! .. (١٦) أى طيبة – الأقصر – ..

(١٧) أى جلا عنها جيش الحملة الفرنسية .

فـــتنقـــذ بنيك[18] من كل نائبـــة

فـــإنهم بأعــــدائهم فى أعظم الخطرِ

والآن غــضـــبـــهم تفـاقم ضــد أمـتنا

ولحبنا الفرنسيس قصدهم نسكن القبرِ

ومــحــبــتنا للفــرنســيس فــلابد عنهــا

لأنهم اعــتــقــونا من الأضــرار والشــرّ

ثم انتـــهى مـــقـــالى إليك ياربى

تجزى نداسته أعــماله بالخيـر والأجرِ[19]

---

(18) يتحدث عن المصريين باعتبارهم أبناء الجنرال «ديزيه»!.

(19) اعتمدنا في هذا النص على ملاحق كتاب (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص 101 - 104

٤ - وصية يعقوب بتبعية مصر لإنجلترا

(. . أما وصية المعلم يعقوب إلى إنجلترا ، لتعمل على أن تحل محل فرنسا - بعد فشل حملة بونابرت - في إخضاع مصر لتبعيتها ، والسيطرة على ثروتها ، وعزلها عن هويتها الحضارية ، وأمتها العربية والإسلامية ، واستخدام القوة الأجنبية في هذا الإخضاع . .

وهي الوصية التي رفعها إلى وزير البحرية البريطانية «الإيرل سان فنسنت» ، بواسطة القبطان «أدموندس» - قائد الفرقاطة «بالاس» - التي أقلت يعقوب وجنود الحملة الفرنسية من الإسكندرية إلى مرسيليا . . .

فهذا هو نصها :)

مذكرات مرفوعة للقبطان جوزيف إدموندس لتذكيره مستقبلا بالنقاط الرئيسة لأحاديثنا السياسية على ظهر سفينته

- ١ -

إن الكتاب المرفقة به هذه المذكرات موجه إلى فخامة اللورد[1] .

---

(١) أي اللورد «كيث» ، الرئيس المباشر للقبطان «إدموندس» . . وجدير بالذكر أن هذا النص هو حصيلة أفكار «يعقوب حنا» ، ترجمها مرافق له على السفينة «بالاس» اسمه «لاسكاريس» ، وصاغه القبطان «أدموندس» . . ولقد رجعنا فيه إلى ملاحق كتاب (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢١ - ١٢٧ .

وهو يبدو للوهلة الأولى مجرد التماس بسيط يرجوه أن يهتم بنا نحن المصريين التعساء . ولكن من الضرورى فى الحقيقة أن ينظر إليه على أنه ملخص للأحاديث السياسية التى دارت بيننا على ظهر السفينة .

ولما كان من عدم التبصر فى الوقت الحاضر عرض خطتنا بشكل أكثر تفصيلا ، فإن هذه المذكرات الموجزة المكتوبة على عجل يمكن أن تكون كافية لتذكيرك بأهم نقاط أحاديثنا . وعندما يحين الوقت الملائم لرفعك إياها مباشرة إلى حكومتك أو لإبلاغها لفخامة اللورد ، فإن المصريين ، لوثوقهم فى سجاياك الكريمة ، يتركون لحسن فطنتك أن تثير اهتمام فخامة اللورد بقضيتهم ، حتى يمكن أن يكون لنا سندا ، سواء بما سوف يكتبه إلى مجلس الوزراء البريطانى ، أو بما سوف يقوم به عند عودته إلى إنجلترا . وإننا لنؤكد أن فخامة اللورد سوف ينتصر بذلك لقضية فيها نفع لبلاده، وليس هناك ما يمكن أن يكون أسمى غاية لسعى لورد نبيل مثله .

- ٢ -

إذا افترضنا أن ما سوف يعرضه «الوفد المصرى لدى الحكومات الأوربية» ، باسم المصريين الذين فوضوه ، يبدو قليل الأهمية فى نظر تلك الحكومات ، فإنكم ياسيادة القبطان توافقوننا على الأقل على أن الدول الأوربية لن تفعل أمجد أو أكرم من أن تبدد بقرار سياسى بسيط ظلمات الجهل والهمجية التى تخيم على هذه البلاد الذائعة الصيت. لقد كانت هذه البلاد مهدا لاستنارتنا ولعلومنا

وفنوننا . ومجمل القول أنها كانت المركز الأول للحضارة التى نقلها عنها اليونان ومنها وصلت إلينا . وإذا كانت مصر بماضيها المزدهر العظيم لا تستطيع أن تثير فى دول أوربا شعور العرفان بصنيعها وما لها من فضل ، فهى تستطيع على الأقل أن تثير فيها شعور العطف عليها . فإذا ما تحقق ذلك وردوا إليها أمرها أمكنها أن ترضى كل الدول الطامعة فيها ، دون أن تهدد واحدة منها فى مصالحها .

- ٣ -

لن يمضى وقت طويل حتى تؤيد بريطانيا حل القضية المصرية على الأسس التالية . . وفى هذه الأثناء قد تتقدم الحكومة الفرنسية نفسها باقتراح ذلك ، وعندئذ ينبغى ألا تنسى الحكومة الإنجليزية أن مايقترح إنما هو نتيجة جهود الوفد المصرى فى باريس . ومن ثم فليس هناك ما يدعو إلى أن تنظر الحكومة الإنجليزية إلى ذلك بشىء من الريبة . وإذا ما تقدمت فرنسا بمثل هذا المشروع السياسى ، فإنها سوف تفعل ذلك على سبيل المجاملة ، لأن مصلحتها فى نجاح المشروع أقل من مصلحة بريطانيا . والذى لاشك فيه أن حكومة الجمهورية الفرنسية لا تزال راغبة فى امتلاك مصر مرة أخرى .

- ٤ -

توشك الإمبراطورية العثمانية على الانهيار . ولذا فيهم الإنجليز قبل أن تقع الواقعة أن يلتمسوا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل

لهم الإفادة من ذلك الحدث عند وقوعه فيحققوا مصالحهم السياسية. وإذا كان من المستحيل عليهم أن يستعمروا مصر - كما استحال ذلك من قبل على فرنسا - فيكفي أن تخضع مصر المستقلة لنفوذ بريطانيا صاحبة التفوق فى البحار المحيطة بها. ولاشك فى أن استقلال مصر سوف يحقق لها رخاءها ، ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية غنية بحاصلاتها الوفيرة التى تنتجها تربتها الخصبة وبتجارتها التى تنفرد بها مع قلب إفريقيا .

وهذه المزايا سوف تعود بالفائدة على بريطانيا التي يهمها - بحكم مركزها فى الهند - أن تتاجر مع مصر وما حولها .

- ٥ -

لقد كان مراد بك[٢] يقول - وربما كان على حق - أن كفار الغرب (هكذا كان يسمى الدول الأوربية) أصبحوا يعرفون مصر معرفة تامة ، وأن الكل يسعى للاستيلاء عليها ، مما سيجعل منها موضوعا دائما للخلاف فيما بينهم . وقد يقال إن بريطانيا لا حاجة بها إلى الاستيلاء على مصر إذ أن لها من سيادتها البحرية ما يجعلها تستأثر بتجارة مصر الخارجية ويضمن لها بالتالى أن يكون لها ما تريد من نفوذ فيها . ولكن ماذا سيكون من أمر هذا النفوذ إذا ما عادت فرنسا من جديد الخليفة الطبيعية للباب العالى ، وإذا ما عمل الباب العالى من ناحيته على إرضاء فرنسا

(٢) من زعماء المماليك فى ذلك التاريخ . فر - بعد هزيمة المماليك - إلى الصعيد . وهادن الفرنسيين . .

أكثر من بريطانيا ؟ وكيف يكون الوضع إذا ما مضت الدولة العثمانية فى إجراءاتها فأغلقت مرافئها فى وجه الإنجليز ؟ ثم أليس من المحتمل كذلك أن يضغط الفرنسيون على حلفائهم ليتخذوا - برا - تدابير عدائية أكثر مع الإنجليز، يمكن أن تقضى على تجارتهم فى بلاد الشام وفى البحر الأحمر ؟

- ٦ -

إن مشاعر المصريين نحو الفرنسيين ترجع إلى أساليب هؤلاء فى الحكم فى أثناء احتلالهم لمصر. ولست فى حاجة إلى إعادة الكلام فى هذا الموضوع، إذ أعتقد أنكم يمكن أن تستعيدوا بسهولة ما دار بيننا من حديث حوله. وعلى هذا فإن كل شىء، بما فى ذلك مشاعر المصريين تجاه الفرنسيين وما يمكن أن يشعروا به تجاه الإنجليز كلما ازدادت معرفتهم لهم، يثبت أن **مصر المستقلة لن تكون إلا موالية لبريطانيا. ومن ثم فعلى بريطانيا أن تعمل على استقلال مصر**. أو على الأقل أن تؤيد هذا الاستقلال بعد حدوثه. وذلك على ضوء ما هو متوقع من تطورات فى مستقبل الأيام.

- ٧ -

إذا فرضنا أن حكومات الدول الأوربية سمحت باستقلال مصر، فكيف يحكم المصريون أنفسهم؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم ؟

أولا: لا يسمح المجال فى هذه المذكرات المحررة على عجل

بالدخول في تفصيلات مشروع الوفد المصرى لحكم البلاد . ويكفى الآن أن نلاحظ أن قيام حكم الاستقلال لن يكون نتيجة انقلاب مبعثه وعى أمة اصطرعت فيها مختلف الآراء الفلسفية، ولكنه سيكون نتيجة تغيير جبرى تفرضه القوة القاهرة على قوم مسالمين جهلاء يكادون لا يعرفون سوى عاطفتين تحركان سلوكهم ، هما المصلحة والخوف . فإذا استطاعت الحكومة الجديدة أن تسبغ على حياة الناس شيئا من الرخاء وأن تعمل على زيادة دخولهم ، وهو أمر ليس بالعسير ، فمن المؤكد أنها ستنال تأييدهم بحماس . وكيف لا يكون الأمر كذلك وأى حكومة في العالم أفضل من الاستبداد التركى . فلتكن الحكومة الجديدة إذًا عادلة وحازمة ووطنية كما كانت حكومة شيخ العرب همام فى الصعيد التى رويت لك قصتها . ولا شك أنها عندئذ سوف تكون موضع الاحترام والطاعة والحب .

ثانيا: كيف يدافع المصريون عن استقلالهم؟ وهل سيكون هذا الدفاع ضد دولة أوربية ؟ إن من غير المتوقع حدوث ذلك إلا بعد وقت طويل يكون قد تم فى خلاله تنظيم جيش وطنى قادر على رد الاعتداء . أما إذا كان الاعتداء من جانب الترك أو المماليك فنعتقد أن الدول الأوربية لن تسمح بحدوث ذلك . ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يعتمدوا على قوات أجنبية تعمل لحسابهم يتراوح عددها بين ١٢٠٠٠ و ١٥٠٠٠ جندى يكفون تماما لصد الترك عند الصحراء ولسحق المماليك داخل مصر، وتكون هذه القوات فى الوقت نفسه نواة الجيش الوطنى . ولما كان العثمانيون

يفعلون أي شيء من أجل المال فمن الممكن بذله لهم لردهم عن مصر . ولقد كان المماليك يستعملون هذا السلاح كلما رأوا سحب السياسة تتلبد ضدهم في القسطنطينية .

وينبغي ألا يفوتنا أن نذكر في هذا الصدد أن المصريين منقسمون إلى عدة طوائف، وأن هذا الانقسام من شأنه أن يساعد على دفع هذه الطوائف بعضها ببعض من أجل حفظ التوازن بينها . وللوفد المصري صلات بهذه الطوائف جميعا دون انحياز لواحدة منها على الأخرى. وهذه الصلات قائمة في الخفاء وستظل خافية تماما عن الحكومة التركية في مصر. وهذه الحيطة أمر لابد منه تجاه حكم مستبد متربص بالناس، ولن يتوانى عن البطش بالأخوة دعاة الاستقلال والفتك بهم عن آخرهم إذا استطاع أن يكشفهم. ولقد استطاع الذين هجروا مصر من هؤلاء الأخوة مع الجيش الفرنسي أن يتحدوا طغيان الترك، ولكن الأمر ليس كذلك بالنسبة للأخوة الذين بقوا في مصر، فهؤلاء يعيشون تحت السيف والعصا، ولا يملكون إلا إخفاء حقيقتهم والظهور بمظهر عبيد السلطان المخلصين.

- ٨ -

إن المصريين كافة ، والوفد المصري لدى الدول الأوربية بوجه خاص ، سيبذلون كل مافي وسعهم من جهد ليحرروا أنفسهم بطريقة ما من النير الذي يثقل كاهل بلادهم التعسة . ولكن إذا خاب سعيهم وجاءت اتفاقيات الصلح العام بعكس ما يرغبون ، وشاء القدر أن يعود الترك إلى امتلاك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة

وتعريضها بذلك لتجدد العدوان عليها ، فأقل ما يلتمسه المهاجرون المصريون من الدول المتعاقدة أن تكفل لهم من الضمانات ما يدرأ عنهم شر انتقام الترك إذا ما عادوا لوطنهم .

- ٩ -

بالرغم من أن الوفد المصرى لا يعمل إلا من أجل تحقيق مشروع سياسى فيه نفع لجميع الحكومات بما فى ذلك الحكومة التركية (وبالرغم مما يبدو من غرابة هذا القول فيمكننا البرهنة على صحته) ، **فقد تعرض ظروف لابد فيها من المحافظة على أسرار المفاوضات. ولذلك فإننا نرفق بهذا «شفرة» يمكن استعمالها فى مراسلاتنا إذا اقتضى الأمر ذلك.**

- ١٠ -

يرى الوفد المصرى حرصا منه على نجاح المفاوضات المزمعة ضرورة كتمان أمر ما فاتحناكم فيه من مقدمات لها ، وكذلك ما يمكن أن تبلغوه لفخامة اللورد ، عن فرنسا وعن أى طرف يستطيع عرقلتها . إن خطة الوفد أن يعمل فى أوربا على أن تكون فرنسا هى التى تبدأ بعرض المقترحات الأولى على بريطانيا ، وتكون بريطانيا عندئذ قد اقتنعت بما فى مشروع الاستقلال المقترح من مزايا فتؤيده . وبهذه الطريقة فإن الوفد المصرى لن يتعرض لأن يرى الحكومة الإنجليزية ترفض المشروع بمجرد علمها به بسبب العداء

التقليدى بين الأمتين الإنجليزية والفرنسية ، أو شكا منها فى وجود دسيسة ما من دسائس فرنسا .

- ١١ -

لكى تسهل مراسلتنا من فرنسا أو من غيرها يمكنك ياسيدى القبطان أن ترسل ما تريد إلى السنيور الكونت انطون كاسيس (قسيس) المقيم فى تريستا ، وهو يقوم بتحويلها إلى حيث يقيم الوفد ، على أن يوضح ذلك بوضع اسمه على كل رسالة . أما الرسائل التى قد توجه إلينا من إنجلترا ، فإن وصولنا إلى باريس سوف يشيع أمره فتتيسر عندئذ معرفة أين نقيم ، وبهذا يمكن أن أتسلم رسائل حكومتكم بسهولة . ولكن تلزم الحيطة التامة فيما يتصل بهذه النقطة الأخيرة حتى لا تتسرب أيه شكوك إلى الحكومة الفرنسية .

ظهر السفينة پلاس فى ٢١ سبتمبر ١٨٠١

٥ - إعلان الولاء لبونابرت

(. . أما رفقاء المعلم يعقوب - فى الخيانة - . . والذين واصلوا - بعد وفاته على ظهر الباخرة «پالاس» - واصلوا مساعى التحريض والإغراء لفرنسا كى تعمل - بالوسائل غير العسكرية - على إلحاق مصر بفرنسا . . وتطبيق التشريعات الفرنسية بمصر ، بدلا من شريعتها الإسلامية وقانونها الوطنى . . فلقد كتبوا إلى بونابرت ، ليعمل على «استقلال» مصر عن حضارتها الإسلامية ، ومحيطها العربى ، مؤكدين أن فى ذلك «الاستقلال» من المكاسب لبونابرت وفرنسا ما يعوض عن الخسارة العسكرية تعويضا يفوق النجاح العسكرى مائة مرة ! . .

فالمقصد الأعظم ، هو أن تدير مصر ظهرها للعروبة والإسلام والشرق ، ملتحقة بأوربا ! . .

وفى هذا السبيل ، كتبوا لبونابرت يقولون :)

من نمر افندى نيابة عن الوفد المصرى إلى القنصل الأول بونابرت إلى القنصل الأول للجمهورية الفرنسية من الوفد المصرى الذى يكن له أعظم التقدير .

المحجر الصحى بمارسيليا فى أول فنديميير من السنة العاشرة للجمهورية (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر ١٢١٦[1]

---

(١) لأن معرفة كاتب هذه الرسالة - نمر أفندى - بالتاريخ الميلادى أكثر من معرفته بالتاريخ الهجرى - علاوة على أنه يكتب من مرسيليا - فلقد راجعنا مقابلة التواريخ - معتمدين الميلادى - فوجدناه يقابل ١٥ جمادى الأولى سنة ١٢١٦ هـ انظر طبعة (التوفيقات الإلهامية) التى حققناها - ص ١٢٥٤ طبعة بيروت سنة ١٩٨٠ م .

فى قديم الزمان، إبان تلك العصور الموغلة فى القدم، عندما كانت فرنسا فى حالة الفطرة تكسوها الثلوج والغابات، كانت مصر متحضرة مزدهرة ينهل مشرعو الإغريق من معين علمها ومعرفتها. ثم دار الزمان دورته وشاء القدر أن يفد مصريو العصر الحاضر أحفاد رواد الحضارة فى الماضى إلى فرنسا وهى تنعم بحكمك الرشيد، ليتعرفوا على نظم أمة يحبونها وليقفوا على ما استحدثته من وسائل لم تسبقها إليها أمة أخرى، مكنتها - وهى الجمهورية الناشئة - من المحافظة على مكاسبها الحربية بما سنته من نظم سياسية جديدة .... وكما أن سولون (Solon)[2] عند عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق ما اقتبسه من النظم المصرية، فإن الوفد المصرى الذى فوضه المصريون الباقون على ولائهم لك سيشرع لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود إليها من فرنسا.

إن هذا سوف يحدث يافخامة القنصل الأول إذا تفضلت - من أجل مجدك ومن أجل المصلحة السياسية للجمهورية الفرنسية - فمددت يد المساعدة للمصريين التعساء الذين وضعت عنهم من قبل أغلالهم التى عادوا ينوءون بها من جديد، وتكرمت فأحسنت استقبال وكلائهم فى باريس. إننا نأمل أن يكون استقبالنا فى العاصمة الفرنسية بمثابة اجتماع شرقى يجدد لك ذكرى الفتح العظيم الذى أفاء الله به عليك ثم ضاع منك[3]. ولا بد أنك - ياسيدى القنصل الأول - شديد الإحساس بألم ما فقدت، ولكنك إذا عملت فى

---

(٢) سولون (٦٤٠ - ٥٥٠ق.م) أعظم مشرعى أثينا، وأحد حكماء اليونان السبعة الشهير بالقوانين التى سنها، والتى خففت وطأة الضرائب على الفقراء.

(٣) هل يقوم المحتفلون بذكرى حملة بونابرت بهذه المهمة؟ لتجديد ذكرى الفتح النابليونى العظيم؟!!

معاهدات الصلح على أن تكون مصر مستقلة فسوف تعوض خسارتك فيها مائة مرة . إن هذه هي أمانينا التي أخذنا على أنفسنا عهداً بالسعي إلى تحقيقها .

عن الوفد المصري

وكيله

نمر افندي

حاشية : أغا الانكشارية[4] وعضو الوفد الذي سبق أن عرفه فخامة القنصل الأول في القاهرة يرجوني أن أذكرك بأنه لن ينسى ما غمرته به من عطف حينذاك[5] .

---

(٤) هو - كما ذكر الدكتور أحمد الصاوي - عبد العال أغا الانكشارية ، وأحد المتعاونين مع جيش الحملة الفرنسية ، والذين خرجوا من مصر مع القوات الغازية سنة ١٨٠١ م .

(٥) رجعنا - في هذه الوثيقة - إلى كتاب (المعلم يعقوب) ص ١٢٩ ، ١٣٠ .

٦ - اختراق إفريقيا بواسطة مصر

(.. كما كتب رفقاء المعلم يعقوب إلى وزير الخارجية الفرنسى - «تاليران» (١٧٥٤ - ١٨٣٨م) - يعرضون خدماتهم بتسخير أقباط مصر وكنيستها لتحقيق اختراق فرنسا لوسط إفريقيا ؛ وذلك عن طريق الكنيسة الأثيوبية - التابعة فى المذهب للكنيسة المصرية - . وهو المشروع الاستعمارى الفرنسى القديم - منذ الملك لويس الرابع عشر (١٦٣٨ - ١٧١٥م) - . .

كتب رفقاء المعلم يعقوب إلى «تاليران» يعرضون العمل على تنفيذ هذا المشروع الاستعمارى الفرنسى القديم - فى عهد الجمهورية - بعد فشل الحملة العسكرية على مصر - ! . . فقالوا :)

من نمر افندى إلى وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)[1]

سيهبط إلى موانئ الجمهورية الفرنسية عدد كبير من المهاجرين الشرقيين الذين غادروا بلادهم مع قوات جيش الشرق التى تم جلاؤها عن مصر .

والوفد المصرى، بالرغم من أنه فقد رئيسه الجنرال يعقوب الذى قضى نحبه فى أثناء السفر، يعلن كل ما يشعر به من ولاء وتقدير للجمهورية الفرنسية، ويرى من الضرورى أن يلجأ إليك بإسعادة

---

(١) تاريخ هذه الرسالة هو ذات تاريخ الرسالة السابقة - المرفوعة إلى بونابرت - ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١م ، ولقد رجعنا فيها إلى المرجع السابق . ص ١٣١ - ١٣٣ .

الوزير لتتفضل وتضعه هو وأولئك المهاجرين تحت رعايتك وتشملهم بكرمك وعنايتك .

لقد كان لويس الرابع عشر يعمل في الظاهر على ضم كنيسة أثيوبيا إلى الكنيسة الرومانية (الكاثوليكية)، ولكنه كان يسعى في الحقيقة لمد نفوذه السياسي نحو أقاليم وسط إفريقيا الجذابة الغامضة. ومن ثم بذل عدة جهود لم يقدر لها النجاح لكي يتعلم في فرنسا عدد من شباب القبط المصريين، لأن بطريرك الأقباط هو هو نفسه رأس الكنيسة الأثيوبية. وإذا كان الملك قد أخفق في مسعاه، فإن الجمهورية الفرنسية اليوم في ظل حكم القنصل الأول[٢] استطاعت أن تحقق ما عجزت عن تحقيقه الملكية المطلقة الاستبدادية.

وإن الوفد المصري الذي ينوب عن الأمة المصرية ليجسد وحده كل ما يختلج في نفوس الذين أنابوه عنهم من شعور بالمصلحة المشتركة ، وما يحتشد في قلوبهم من أمان وما يملكون من فطنة وما يتمتعون به من نفوذ وثروة . وهو يعبر عما أجمعوا عليه مما يتمثل في رغبتين :

الأولى: هي القضاء على القوة الغشوم التي عادت تستبد بهم من جديد،

والثانية: هي وضع ثقتهم في فرنسا ليقينهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقتضي ألا تخيب أملهم.

وبناء على ذلك فنحن نتقدم إلى سعادة الوزير باقتراح : لقد تكبدت فرنسا في الشرق خسارة جسيمة، فلم لا تتخذ من هذا الوفد

---

(٢) أي بونابرت .

وسيلة لتعويض ما خسرته؟ إنك إذا تفضلت فدعوت الوفد إلى لقائك فى باريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع بريطانيا، فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا سوف تحتفظ بنفوذها السياسى فى الشرق وتحميه مما قد يفقدها إياه زمنا طويلا نتيجة للجلاء عن مصر وما تطور إليه أمرها الآن، ونتيجة لمؤامرات الدول التى تخشى بحق زيادة نفوذ فرنسا. بل نستطيع أكثر من ذلك أن نتأكد أن فرنسا - إذا أرادت - يمكنها عن طريق الأمة المصرية التى ستكون موالية لها مد نفوذها نحو أواسط إفريقيا. وهكذا يتحول تركك مصر للإنجليز من نكبة إلى سبب لمجد القنصل الأول ومصدر رفاهية للأقاليم الفرنسية فى الجنوب.

ولا يرى الوفد المصرى فى الوقت الحالى داعيا للإطالة. فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يوضح مقاصده بما لا يستطيع فى عشرين مذكرة مكتوبة. ونحن العرب نقدر فى الحديث على التعبير عما نريد، وإن كنا فى الكتابة قد لا نستطيع أن نبلغ الغاية فى يسر. وبالإضافة إلى هذا فنحن مدركون لما تفرضه علينا كثرة مشاغلك السياسية من ضرورة الإيجاز فى الرسائل.

إننا نرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا، وأن تسمح لنا إذا تكرمت باستقبالنا فى باريس أن نقابلك بزينا الشرقى، فالمسلمون منا بالذات ليس من اليسير عليهم تغيير زيهم[٣]، ثم إن هذه

---

(٣) كان هناك مسلمون تعاونوا مع الحملة الفرنسية.. ومنهم من غادر مصر مع جيش الحملة المنهزم.. وبعضهم شارك فى هذا «الوفد».. فالخيانة لم تكن كلها فى غير المسلمين!..

الأزياء الشرقية قد تذكر فخامة القنصل الأول بفتوحه السابقة وترضى حب الاستطلاع لدى من لم يتبعوه للشرق .

إن الوفد المصرى يعلم تماما أن وقت القنصل الأول ، الذى يدبر بنفسه شئون الحكم حتى فى أدق جزئياتها ، وتنعم الدولة برعايته ، أثمن من أن ينفقه فى التندر بقراءة ما يرد إليه من الرسائل الخاصة . ولكننا نرجوه أن يقدر أن وفدنا ينفرد بطبيعة خاصة ، وأنه يصل إلى فرنسا فى ظروف معينة ، وأن كتابنا له المرفق بهذا[4] له أهميته ، فيتفضل بتسلمه ويمعن النظر فيه بحكمته العميقة[5] .

---

(٤) الإشارة إلى الوثيقة السابقة - المرفوعة من هذا «الوفد» إلى بونابرت

(٥) جدير بالذكر أن «تاليران» ، الذى سعى إليه رفقاء المعلم يعقوب .. هو نفسه الذى سبق له - قبل الحملة على مصر - وتقدم بمشروع استعمار مصر إلى الحكومة الفرنسية منبها على أن هذا الاستعمار الفرنسى هو إحياء للإمبراطورية الرومانية - التى كانت مصر من مستعمراتها - فقال : «كانت مصر مقاطعة فى الجمهورية الرومانية ، فيجب أن تصبح للجمهورية الفرنسية» !!

٧ - واختراق منظومة القيم

(ولم تقف محنة هذه الحملة عند احتلال الأرض .. ونهب الثروة .. وزرع الخيانة .. واختراق سياج الأمن الوطنى والقومى والحضارى .. وإنما أحدثت خرقا واختراقا فى منظومة القيم الإسلامية والعربية والشرقية .. وذلك عندما أضفت أفكار وممارسات الفرنسيين، المشروعية.. والعلنية، على المحرمات والانحرافات..

وإذا كان الاختراق على هذه الجبهة يستحق دراسة طويلة ومعمقة .. فإن هذا المقام تكفى فيه هذه السطور، التى كتبها شاهد العصر وحجته وأعظم مؤرخيه .. فلقد كتب الجبرتى عن هذا الاختراق لمنظومة القيم الإسلامية والشرقية ، فقال :)

« .. ومنها تبرج النساء ، وخروج غالبهن عن الحشمة والحياء .

وهو أنه لما حضر الفرنسيس إلى مصر ، ومع البعض منهم نساؤهم ، كانوا يمشون فى الشوارع مع نسائهم وهن حاسرات الوجوه ، لابسات الفستانات والمناديل الحرير الملونة ، ويسدلن على مناكبهن الطرح الكشميرى والمزركشات المصبوغة ، ويركبن الخيول والحمير ويسقنها سوقا عنيفا، مع الضحك والقهقهة، ومداعبة المكارية معهم وحرافيش العامة.

فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواحش، فتداخلن مع الفرنسيس، لخضوعهم للنساء، وبذل الأموال لهن. وكان ذلك التداخل، أولا، مع بعض احتشام وخشية عار، ومبالغة فى إخفائه،

فلما وقعت الفتنة الأخيرة بمصر - (أى ثورة القاهرة) - وحاربت الفرنسيس بولاق، وفتكوا في أهلها، وغنموا أموالها، وأخذوا ما استحسنوه من النساء والبنات، صرن مأسورات عندهم، فزينوهن بزى نسائهم، وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال، فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالكلية، وتداخل مع أولئك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر، حتى كثرت الفواحش من النساء. مع ما حل بالمسلمين من الذل والهوان وسلب الأموال، واجتماع خيرات الدنيا في حوز الفرنسيس، وشدة رغبتهم في النساء، وخضوعهم لهن، وموافقة مرادهن، وعدم مخالفة هواهن، ولو شتمنه أو ضربنه بتاسومتها[1] على قفاه، ولو كانت هى في غاية القبح. فطرحن الحشمة والوقار، والمبالاة والاعتبار، واستلمن نظرائهن، واختلسن عقولهن، لميل النفوس إلى الشهوات، وخصوصا عقول القاصرات.

وخطب الكثير منهم بنات الأعيان وتزوجوهن، رغبة في سلطانهن ونوالهن، فيظهر حالة العقد الإسلام، وينطق بالشهادتين، لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها.

وصار مع حكام الأخطاط[2] منهم النساء المسلمات، متزيات بزيهم، ومشوا معهن في الأخطاط للنظر في أمور الرعية، والأحكام العادية، والأمر والنهى والمناداة. وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها وأضيافها على مثل شكلها، وأمامها القواسة[3] والخدم وبأيديهم

(١) نوع من النعال.
(٢) مفردها: خطة.. الربع السكنى؛ والحى فى المدينة.
(٣) مفردها: قواس - وهو حامل القوس..

العصي يفرجون[4] لهن الناس، ويوسعون من أجل مرورهن الطرقات مثل مايمر الحاكم، ويأمرن وينهين في الأحكام.

ولما وفى النيل، ودخل الماء في الخليج، وجرت فيه السفن، وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب والرقص والغناء والشرب في النهار والليل، في الفوانيس والشموع الموقدة، وعليهن الملابس الفاخرة والحلي والجواهر المرصعة، وصحبتهم آلات الطرب، وخدمة السفن يكثرون من الهزل والمجون، ويتجاوبون برفع الصوت في تحريك المقاذيف بسخايف موضوعاتهم وكشايف مطبوعاتهم، وخصوصا إذا دبت الحشيشة في رؤوسهم، وتحكمت في عقولهم، فيصرخون ويطبلون ويرقصون ويزمرون ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنساوية في غنائهم، وتقليد كلامهم شيء كثير.

وأما الجواري السود، فإنهن لما علمن رغبة القوم في مطلق الأنثى. ذهبن إليهم أفواجا، فرادى وأزواجا، فنططن الحيطان، وتسلقن إليهم من الطيقان، ودلوهم على مخبآت أسيادهن، وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك...»[5].. إلخ .. إلخ .. إلخ ...

---

(٤) أي يوسعون لهن الطريق بين الناس..

(٥) (مظهر التقديس) ص ٣١٠، ٣١١.

والآن...

وبعد هذه النماذج من وثائق التضليل والإفك.. والخيانة والاختراق للأمن الوطني والقومي والحضاري - التي صنعها بونابرت وحملته على مصر - .. سيدهش القارئ، لا من هذه الأكاذيب والخيانات والاختراقات - المثيرة للدهشة - .. وإنما من عظمة الإسلام، وسماحة مصر الإسلامية في مواجهة هذا الذي اقترفه هذا النفر من أبناء مصر، بإغراء ورعاية وتشجيع من الفرنسيين..

فلقد تسامت مصر على كل هذه الجراح.. وسعت إلى طي صفحاتها الكالحة السواد.. وجاهدت لتضميد جراح الوحدة الوطنية بين أبنائها.. فعممت النداءات للشعب والأهالي في مختلف الأقاليم والمدن والقرى، لنسيان هذا الذي حدث، والحذر من الانتقام، ومعاملة الأقباط بالسماحة والحسنى، بل والتماس الأعذار لهذا الذي صنعه هذا الفريق من «أراذل القبط»!

بل إن الدهشة لتبلغ الذروة إذا علمنا ما بذلته مصر - إبان استعداد جنود الحملة الفرنسية للإبحار - لإقناع حتى المعلم يعقوب بالبقاء في مصر، عارضة عليه التجاوز عما اقترفت يداه طوال سنوات الاحتلال!..

نعم.. لقد صنعت مصر الإسلامية ذلك.. ولم تنصب المشانق لقيادات الخيانة.. الذين نصبوا المشانق وحرقوا وأغرقوا العلماء والقادة والمواطنين والمواطنات - .. وعن هذه السماحة يتحدث الجبرتي، فيقول:

لقد «نُودى بأن لا أحد يتعرض بالأذية لنصرانى ولا يهودى، سواء كان قبطيا أو روميا أو شاميا، فإنهم من رعايا السلطان. والماضى لا يُعاد..

وكُتِبَت فرمانات، وأُرسلت إلى بلاد الشرقية، والمنوفية، والغربية، مضمونها: الكف عن أذية النصارى واليهود وأهل الذمة، وعدم التعرض لهم. وفى ضمنها - (أى الفرمانات) - آيات قرآنية، وأحاديث نبوية، والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساوية: صيانة أعراضهم وأموالهم..

كما قُرئت فرمانات - صحبة «عثمان كتخدا» - نائب الوالى العثمانى - وفيها: التنويه بذكر أعيان الكتبة الأقباط والوصية بهم، مثل: جرجس الجوهرى، وواصف، وملطى...» - (وهم الذين شاركوا مع يعقوب حنا - فى قيادة الفيالق العسكرية لحساب الحملة الفرنسية)[1] - !!..

نعم.. لقد لملمت مصر جراحها.. وسعت إلى تجاوز المحنة، التى صنعها بونابرت وحملته الاستعمارية.. محنة الإبادة التى قتلت ١ / ٧ الشعب المصرى فى ثلاث سنوات.. وأحدثت أخطر الاختراقات على جبهات الوحدة الوطنية والأمن القومى والحياة الفكرية ومنظومة القيم والمثل والأخلاق..

* * *

---

(١) (عجائب الآثار) جـ٥ ص ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٠٤.

فهل يثوب الفرانكفونيون - الذين ينكأون هذه الجراح، باحتفالهم بهذه المحنة - هل يثوبون إلى رشدهم، لتتفرغ بلادنا وأمتنا إلى معاركها الحقيقية والكبرى والملحة؟..

إن فطرة الوطنية تناديهم للاحتفال بالاستقلال، لا بالاحتلال.. والفرح بانتصارات أمتهم، مع الاعتبار من هزائمها.. فهل تتغلب لديهم الفطرة السوية على هذا الشذوذ الغريب؟!..

نأمل... ونرجو.. ذلك:

﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧) ﴾[٢].

---

(٢) يوسف: ٨٧.

صدر من سلسلة (فى التنوير الإسلامى)

١ – الصحوة الإسلامية فى عيون غربية .	د . محمد عمارة
٢ – الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
٣ – ابو حيان التوحيدى .	د . محمد عمارة
٤ – دراسة قرآنية فى فقة التجدد الحضارى .	د . سيد دسوقى
٥ – ابن رشد بين الغرب والاسلام .	د . محمد عمارة
٦ – الانتماء الثقافى	د . محمد عمارة
٧ – تنصير العالم .	د . زينب عبد العزيز
٨ – التعددية الرؤية الإسلامية والتحديات .	د . محمد عمارة
٩ – صراع القيم بين الغرب والإسلام .	د . محمد عمارة
١٠ – د . يوسف القرضاوى : المدرسة الفكرية . والمشروع الفكرى	د . محمد عمارة
١١ – تأملات فى التفسير الحضارى للقرآن الكريم .	د . سيد دسوقى
١٢ – عندما دخلت مصر فى دين الله .	د . محمد عمارة
١٣ – الحركات الإسلامية رؤية نقدية .	د . محمد عمارة
١٤ – المنهاج العقلى .	د . محمد عمارة
١٥ – النموذج الثقافى .	د . محمد عمارة
١٦ – منهجية التغيير بين النظرية والتطبيق .	د . صلاح الصاوى
١٧ – تجديد الدنيا بتجديد الدين	د . محمد عمارة
١٨ – الثوابت والمتغيرات فى اليقظة الإسلامية الحديثة .	د . محمد عمارة
١٩ – نقض كتاب الاسلام وأصول الحكم .	د . محمد عمارة
٢٠ – التقدم والاصلاح بالتنوير الغربى .	د . محمد عمارة
٢١ – فكر حركة الاستنارة . . وتناقضاته .	د . عبد الوهاب المسيرى
٢٢ – حرية التعبير فى الغرب من سلمان رشدى إلى روجية جارودى .	د . شريف عبد العظيم
٢٣ – أسلامية الصراع حول القدس وفلسطين .	د . محمد عمارة
٢٤ – الحضارات العالمية تدافع؟ . . أم صراع .	د . محمد عمارة
٢٥ – التنمية الاجتماعية بالغرب ؟ . . أم بالاسلام؟؟	د . عادل حسين
٢٦ – الحملة الفرنسية فى الميزان .	د . محمد عمارة
٢٧ – الإسلام فى عيون غربية . . دراسات سويسرية	ترجمة ا . ثابت عيد
٢٨ – الأقليات الدينية والقومية تنوع ووحدة . . أم تفتيت وأختراق .	د . محمد عمارة
٢٩ – ميراث المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان
٣٠ – نفقة المرأة وقضية المساواة .	د . صلاح الدين سلطان .

الفهـرس


نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع
أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث . .

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، تصدر هذه السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى المعاصر :

- د . محمد عمارة
- المستشار طارق البشرى
- د . حسن الشافعى
- د . محمد سليم العوا
- ا . فهمى هويدى
- د . جمال الدين عطية
- د . سيد دسوقى
- د . كمال الدين إمام
- د . عبدالوهاب المسيرى
- د . شريف عبد العظيم
- د . عادل حسين
- د . صلاح الدين سلطان

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين . .

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر

